المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

جبريل تمسير نيان

سونچاتا

ملحمة شعب الماندينج

ترجمة: توحيدة على توفيق
مراجعة: أمينة رشيد
تقديم: حلمى شعراوى

1452

سلسلة الإبداع القصصى

سونچاتا

ملحمة شعب الماندينج

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

العدد: 1452

- سونچاتا
- جبريل تمسيرنيان
- توحيدة على توفيق
- أمينة رشيد
- حلمى شعراوى
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية:

SOUNDJATA
Ou L'epopee Mandingue
Par: D.T. Niane
SOUNDJATA OU L'ÉPOPÉE MANDINGUE © PRÉSENCE AFRICAINE, 1960

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٦، فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
EL Gabalaya st. Opera House، El Gezira، Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com 27354524 – 27354526. Fax: 27354554

سونچاتا

(ملحمة شعب الماندينج)

تـأليـف: جبريل تمسير نيان
تـرجمة: توحيدة على توفيق
مراجعة: أمينــــة رشيــد
تقديــم: حلمــى شعــراوى

2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

نيان، جبريل تمسير

سونچاتا: ملحمة شعب الماندينج/ تأليف: جبريل تمسير نيان؛ ترجمة: توحيدة على توفيق، مراجعة: أمينة رشيد؛ تقديم: حلمى شعراوى ط ١؛ القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠.

٢٣٦ ص ٢٠ سم.

١- الملاحم
أ- توفيق، توحيدة على (مترجم)
ب- رشيد، أمينة (مراجع)
جـ - شعراوى، حلمى (مقدم)
د ـ العنوان ٨٠٨,٨١٣٢

رقم الإيداع: ٢٢٧٢٢ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى 2 - 750 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

سونچاتا.. سيرة شعب الماندينج بين التاريخ والملحمة

دراسة بقلم: حلمى شعراوى 7

مقدمة المؤلف........................ 31

النص

كلام الراوى مامادو كوياتيه 37

ملوك الماندينج الأوائل 41

المرأة العجل 51

الطفل الأسد 71

الطفولة 75

صحوة الأسد 81

المنفى 99

سوماؤرو كانتيه، الملك العراف 121

تاريخ 127

أوراق الباوباب 135

العودة 143

أسماء الأبطال 157

نانا تريبان و بلاّ فاسيكيه 163

كرينا 171

الإمبراطورية 193

كوروكان فوجان، أو تقسيم العالم 201
نيانى 215
الماندينج الخالدة 225

سونچاتا.. سيرة شعب الماندينج

بين التاريخ والملحمة

دراسة: حلمى شعراوى

ملحمة سونچاتا كيتا Soundjata Keita "التى سجلها الأستاذ الغينى" جبريل تمسير نيان" Djibril Tamsir Niane عن الجيلى (الراوى) "مامادو كوياتيه" فى قرية "جيليبا كورو "بغينيا وبلغة" "الماندينج" أو "المانينكى" عام ١٩٦٠، هى من أشهر النصوص الملحمية فى غرب أفريقيا، إذ تعبر، ملحميا عن التاريخ الشفاهى الشعبى لإمبراطورية "مالى"، التى قامت فى القرن الثالث عشر بـزعامة "سونچاتا كيتا" والـذى عُرف بأسماء "تارى ماغان جاتا" أو الملك الأسد وغيرها (١٢١٠-١٢٥٥). قامت "مالى الإمبراطورية" على مساحة تضم من بين دول غرب أفريقيا الحالية أو أجزاء كبيرة منها على الأقل، جمهوريات: مالى- السنغال- جامبيا- غينيا- غينيا بيساو- بوركينا فاسو- وشمال ساحل العاج وليبيريا- وجنوب موريتانيا، أو لنقل حسب انتشار ثقافة ولهجات "الماندى" أو الماندينج، ولا نقول عشائرهم، فى تلك المنطقة الواسعة، التى تضم الماندينج والبمبارا والولوف والسوننكى والسنغاى... وغيرهم. وكان العرب ومؤرخوهم يطلقون على شعوب هذه المنطقة كلها اسم التكرور أو التوكلور،

اعترافا بوحدتها، وبألفة أبنائها فى القاهرة فى رواق التكارنة بالأزهر أو بولاق التكرور.. إلخ، كما يطلق معظم الأفارقة فى المنطقة اسم "الوانجارا" على هذه المجموعة المنتشرة بالتجارة فى أنحاء المنطقة.

وقد نشر الأستاذ "نيان" نصه بالفرنسية، ليصبح أقدم التسجيلات المنشورة وأكثرها انتشارا بحكم تتابع ترجمته حسب تصريح الأستاذ "نيان" نفسه (٢٠٠٩) إلى الإنجليزية بدءا من عام ١٩٦٥، ثم إلى البرتغالية والصينية واليابانية والألمانية والتشيكية، وغيرها بعد ذلك (وحتى ترجمتها الحالية إلى العربية). كما نشرت نصوص عن تسجيلات أخرى للملحمة (بالإنجليزية) عرف منها نص الراوى "فاديجى سيسوكو "للأستاذ" جون وليام جونسون "باسم سونجارا" "ملحمة الماندى"– منشورات (جامعة إنديانا ١٩٨٦) كما اشتهر فيلم "كيتا: تراث الجريو" مسجلا نصا آخر، بل ويذكر الأستاذ "نيان" أن مئات القصص الفرعية رويت حول "سونچاتا"، ويشكل نصه هنا إحدى الروايات المتكاملة لهذه الملحمة.

وقد أجاب الأستاذ "كورا أجانوسى" أحد الباحثين حول الملحمة ردا على سؤال: أى النصوص أكثر صحة قائلا: إنه سؤال "غربى جدا".. فليس ذلك مألوفا حول الملاحم الأفريقية الشفاهية المتعددة النصوص. ويصدق ذلك خاصة لدى شعوب "الماندى" وذكرياتها حول البطل التاريخى: سونچاتا كيتا، المانسا (ملك الملوك، والملك

الأسد) ومسمياته المختلفة مثل "سونجارا" و"سونادياتا" و"تارى جاتا". وهو ما جاء أيضا عند ابن بطوطة، وفى تاريخ ابن خلدون والبكرى، والعمرى، وغيرهم.

ويبدى كثير من المراكز العلمية والثقافية الغربية اهتماما فائقا بروايات شفوية متنوعة عن "سونچاتا" وموسيقاها، ومن ذلك جامعة إنديانا ومركز كيندى وجامعة بنسلفانيا، حيث صدرت العشرات من مطبوعات تبسيطها للأطفال ومعلمى التاريخ، وذلك بعد الاهتمام العارم بها من قبل الأمريكيين الأفريقيين تمجيدا للتاريخ الأفريقى، فترة بحثهم عن هويتهم وتأكيد أفريقيتهم خاصة فى الستينيات وحتى وقت قريب.

بقى أن نعرف أن الأستاذ "جبريل تمسير نيان" مسجل النص الأساسى وكاتبه بالفرنسية لتنشره دار "بريزانس أفريكين" ١٩٦٠ وفى ثلاث طبعات متتالية بباريس، هو أستاذ التاريخ بجامعة "كوناكرى"- غينيا، وهو أحد أربعة مؤسسين لموسوعة "تاريخ أفريقيا العام" التى نشرتها اليونسكو منذ عام ١٩٧١، وهو المحرر الرئيسى للمجلد الرابع بوجه خاص شاملا كتابته فى الفصل السادس عن "إمبراطورية مالى" واستكمال توسعها على يد "سونچاتا". كما أنه معنى بمتابعة هذا التاريخ المهم لإمبراطورية "مالى" وتشكيلها للروح الوحدوية لإقليم غرب أفريقيا، على نحو ما عبر عنها ميثاق "كوروكان فوجان" المعروف بين "الماندينج" "بميثاق تقسيم العالم " لما

يتضمنه من مبادئ إنسانية ومجتمعية عامة، وتتقاسمها شعوب العالم، صدرت عن اجتماع شامل لملوك المنطقة بزعامة "سونچاتا" ١٢٣٦م، وفق ما ورد فى ملحمة "سونچاتا" وسجله "نيان" كمؤرخ. وقد أشرف "نيان" أيضًا على صياغة هذه الوثيقة فى شكل دستورى، فى (٤٤ مادة) – بعد إعادة اكتشافها عام ١٩٩٨، وإشراف القاضى الأفريقى "سيرمان كوياتيه"، مع اعتمادها من علماء التراث بعد اجتماع للرواه فى مدينة "كوروكان المعروفة فى غينيا، وبإشراف الأستاذ "نيان" نفسه بمعهد بحوث اللغويات التطبيقى بغينيا، تعبيرا عن عمق تأثير الملحمة فى صياغة التراث السياسى لشعوب المنطقة.

لقد ظل الأفارقة جنوب الصحراء يعانون المزاعم من قبل مستغليهم الأوربيين، بل والقريبين إليهم بشأن افتقارهم "للتاريخ" أو معرفتهم لنظم الدولة، أو الكتابة أو فنون الأدب.. إلخ وكأن المستشرقين أو المستفرقين أو غيرهم لم يقرأوا عن مملكة "غانا" منذ بداية الألفية الأولى (٣٠٠م– ١٢٠٠م) أو ممالك "مالى" والتكرور والسنغاى بعدها فى غرب القارة، ناهيك عن ممالك الهوسا والزولو والمتابيلى والسواحيلية وغيرهم فى مناطق القارة الأخرى..

وطوال هذه الرحلة فى التاريخ المعروف لنا، والتى سميت فى بعض المناطق بالعصور الوسطى وعصور الانحطاط وعصور الظلام.. إلخ، تكونت الإمبراطوريات الأفريقية وأُعدت الدساتير، كما كتب تراث معروف للغات أفريقية عديدة ومنذ وقت مبكر بالحرف

العربى فيما سمى "بالعجمى.." ومن فنون الأدب عرفنا الملاحم النثرية والشعرية فيما انتقل إلينا وأصبح بين أيدينا مثل ملحمة "سونچاتا" الشهيرة بين شعوب الماندينج أو الماندية فى أنحاء أفريقيا، بل وملحمة "الساموري" (عمر تال) وملحمة "الشاكا" بين الزولو (جنوب القارة).. وكلها أصبحت الآن معروفة خارج حدودها بلغات العالم المختلفة، تعلن للجميع أن الراوى الأفريقى الذى كان له نظامه فى التتابع والتدريب كراو للأمير ثم الملك أو الإمبراطور وعُرف فى غرب أفريقيا "باسم" الجيلى (أو "الجريو" فى التعبير الفرنسى)، إنما كان يمثل نظاما متوارثا بدوره مثل توارث الملك، يتناقل فيه الراوى سيرة الملك والمملكة- بما هو أقرب إلى التاريخ الفعلى للمملكة فى النهاية وإن جاء بصيغة ملحمية. وتنقل تباعا للجيل التالى، ثم يتناقلها "رواه العشيرة على مدى قد يطول ليصل إلينا نص- مثل ملحمة "سونچاتا"- من القرن الثالث عشر حتى رواية "الجيلى ممادو كوياتيه" الذى سجل روايته "الأستاذ جبريل تمسير نيان"!. وفى بحوث أخرى قد تكون الملحمة تخلقت فى عصر مختلف، قريب أو بعيد حاملة أخيلة الماضى والحاضر على السواء.

يقول "تمسير نيان" فى مقدمته لنص الملحمة:

"يتعين إذن منذ الآن إزالة الغموض. فالآن عندما نتحدث عن الرواة، يتبادر إلى الذهن هذه "الفئة من الموسيقيين المحترفين "التى تكونت للعيش على حساب الآخرين، فإذا قيل راو، فإننا نستدعى

للذاكرة هؤلاء من عازفى الجيتار الكثر، الذين ينتشرون فى مدننا ويبيعون "موسيقاهم" فى استديوهات التسجيل فى كل من داكار وأبيدجان.... إلخ.

"فإذا ما تحول الراوى- الآن- إلى الاستفادة من فنه الموسيقى، بل وحتى للعمل بيديه كى يعيش، فإن الأمر لم يكن كذلك دائما فى أفريقيا قديما. كان الراوه فيما مضى هم "مستشارو" الملوك، وكانوا يحافظون على "دساتير" الممالك، وذلك بعملهم الوحيد بالذاكرة، وكان هناك راو لكل أسرة حاكمة، ملزما بالحفاظ على التراث. وكان الملوك يختارون معلمى الأمراء الشبان من بين الرواه. وفى المجتمع الأفريقى الذى تميز بتراتبية كبيرة فيما قبل الاستعمار، حيث كان لكل موضعه، كان يبدو لنا الراوى كواحد من أعضاء هذا المجتمع الأكثر أهمية، لأنه -وبسبب غياب الوثائق- هو الذى حافظ على التراث، ومبادئ حكم الملوك. لقد أجبرت القلاقل الاجتماعية الناشئة عن الغزو، هؤلاء الراوه، على العيش- مثلما هو حادث اليوم- بطريقة مختلفة: كما يستفيدون مما يشكل نفوذهم- إلى ذلك الحين من فن الكلام والموسيقى.

سونجاتا.. فى التاريخ

يقف التاريخ أحيانا فى تحد مع السير أو الملاحم الشفاهية الشعبية، ويحدث ذلك مع التراث العربى خاصة، حيث يرى بعض

المتخصصين أنه لا داعى لإرباك النص الشفاهى بوقائع التاريخ، أو العكس، وأظن أن الهلالية مثل غيرها تحتل حيزا كبيرا فى هذا الجدل. ربما يسهم توفر النصوص التاريخية الموثقة، على المستوى العربى، فى زخم هذا النقاش، خاصة أن الكتابة الموسوعية التكرارية وفهارسها العربية باتت معروفة بصلاتها بالفترة التى شاعت فيها السير والملاحم الشعبية العربية. والحال ليس كذلك تماما على المستوى الأفريقى، ويمكن أن يكون أكثر تعقيدا فى نفس الوقت. فثمة ملاحم معتمدة تشير إلى تواريخ متنوعة، وثمة عملية تأريخ عربى إسلامى فقط وفق وقائع الرحلة العربية إلى أفريقيا، ثم تأريخ أبناء الثقافات الأفريقية لأنفسهم فى وقت متأخر نسبيا عن زمن الرحلة العربية، ثم يأتى المؤرخون الأوربيون بمناهج ونوايا مختلفة كثيرا.

وقد حاول بعض المؤرخين الأفارقة المحدثين أن يجمعوا شتات الجدل بين كل هذه المصادر فى كتابات لمثل "تمسير نيان" و"مادينا لى تال" فى (موسوعة التاريخ العام لأفريقيا- اليونسكو ١٩٧١) عن إمبراطورية مالى تحديدا، فضلا عن إضافات علماء مثل "شيخ أنتا ديوب" و"كى زيربو" و"بوبوهاما" وغيرهم ممن مهدوا الطريق لمدارس تاريخية أفريقية أحدث من أمثال "أبوبكر بارى" و"عبد الله باتيلى" و"محمد عبد الشريف".. وغيرهم.

وهؤلاء جميعا يراجعون مدرسة التاريخ العربية من جهة، ويعتمدون التراث الشفاهى الأفريقى، من جهة أخرى، مصدرًا.

للتاريخ أو أحد مصادره المهمة بقدر ما هو مصدر للدراسات الأنثروبولوجية أو دراسات الثقافة الشعبية.

ومن هنا تأتى مكانة ملحمة "سونچاتا" فى تاريخ غرب أفريقيا. وحيث لا تسمح مساحة المقال لتفاصيل كثيرة فى هذا الصدد، فإننا نريد أن نعرِّف فقط بطبيعة التفاعل السياسى والثقافى فى عصر نهوض ممالك، ودول وإمبراطوريات على مساحة تمتد من المنطقة العربية الإسلامية شمالا إلى أفريقيا غربا وشرقا قبل أن تبدأ التفاعلية الاستعمارية مع االعالم الغربى.

عُرف الكثير عن المرابطين فى الشمال الأفريقى، وتطلعهم ومن تلاهم للتعامل والتفاعل مع ممالك الساحة الأفريقية القريبة منهم فى منطقة غرب القارة حتى لجأوا للالتحام المباشر مع مملكة "غانا" فى القرن الحادى عشر. ورغم سقوط دولة المرابطين أنفسهم فى هذا القرن، فقد تصاعد نجم الموحدين ثم المرينيين حتى القرن الخامس عشر فى علاقات هادئة؛ حتى يأتى السعديون للمغرب بالروح العدوانية المعروفة؛ ليحولوا التفاعل الهادئ إلى هجمات مباشرة حتى لو استعان "أبو العباس أحمد المنصور (الذهبى) فيما بين ١٥٧٨-١٦٠٣ بالإسبان لمهاجمة بقايا ممالك مالى والسنغاى، ولينتهى هو إلى الالتقاء مع الأوربيين والتسليم أمامهم على الساحل الأفريقى.

هذا بينما كان التفاعل قائما من جهة أخرى بين الممالك الأفريقية والممالك الفاطمية والأيوبية حتى تميز عصر المماليك فى

القرن ١٣-١٥ فى مصر بالعلاقات الوثيقة مع ممالك غرب أفريقيا؛ مثلما كان الحال على يد أمثال السلطان قلاوون فى نفس الفترة المرينية النشطة من قبل المغاربة. ورغم البدايات المتواضعة للوصول الأوروبى للمنطقة الأفريقية على يد البرتغاليين منذ القرن الخامس عشر من أجل الذهب والعاج والرقيق، فإنهم استطاعوا تحويل نظر الممالك الأفريقية إلى أهمية الساحل الغربى للقارة بدلا من تركيز النظر على الشمال والمشرق.

كانت هذه الفترة فى الغرب الأفريقى فترة ازدهار لتجارة الذهب وصنائع الحديد والنحاس والعاج بل والأسلحة البيضاء، كما كانت عواصم الالتقاء العربى الأفريقى ممتدة من القاهرة وغدامس والقيروان وفاس إلى جاو، وتومبوكتو، ونيانى وكانم ثم كانو.. إلخ. وهى نفس الفترة التى جاء إلى المنطقة مؤرخون ورحالة مثل البكرى والإدريسى والعمرى ثم ابن بطوطة وابن خلدون (بين القرن الحادى عشر وحتى الخامس عشر..) ولأنها لم تكن فترة صراعات تذكر فلم ينتبه التاريخ العربى إلى طبيعة تفاعلات السلطة فى أفريقيا ومراكز ممالكها بل وحدود وضع الإسلام فيها ونخبه الحاكمة فى بعضها دون الآخر مثلما حدث مع غانا ومالى، وإنما أسمى معظم المؤرخين العرب شعوب هذه المنطقة مجتمعة "ببلاد السودان، وبلاد التكرور"، مستحضرين فقط نمط السلطة الإسلامية، من غزوات ورقيق وحريم وتجارة واسعة. ولم يسجل المؤرخ العربى طبيعة التطور فى غانا

"بتاريخ ممتد من عام ٣٠٠م إلى ١٢٠٠ ممثلة لشعب" السوسو" جنوب نهر السنغال أو قل من "فوتاجالون" إلى قرب نهر النيجر، إلى نشوء إمبراطورية مالى "الماندينج"؛ والرغبة الجامحة عند ملوكها للتوحد فى مواجهة احتمالات زحف بقايا ملوك "غانا". وكان "الماندينج" أو "الماندية" أو الميندى يشعرون أنهم أصل شعوب معظم بلدان غرب أفريقيا. وهذه الرغبة التوحيدية منذ ١٢٠٠ ميلادية هى التى أسست إمبراطورية "مالى" بقيادة" سونجاتا كيتا"، أو نارى ماغان جاتا..

وقبل أن نشرع فى وضع "سونجاتا" فى تاريخ مالى، أرى أن أنبه أيضا إلى جهد المؤرخين "الأفارقة" أنفسهم فى هذا المجال؛ أمثال "محمود كعت" فى تاريخ الفتاش" أو عبد الرحمن السعدى" فى "تاريخ السودان"، و"أحمد بابا التمبكتى" فى "نيل الابتهاج"؛ وذلك طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر. لكن هؤلاء بدورهم لم يستطيعوا إلا أن يكونوا" مؤرخين إسلاميين" بأدوات التأريخ الإسلامية عن السلطنات والممالك، وتصور نشر الإسلام بين "الوثنيين" فى أفريقيا.. وفى هذا الصدد لم يحتل الإمبراطور "سونجاتا كيتا" مؤسس إمبراطورية مالى إلا القدر اليسير فى الذاكرة العربية أو "المكتوب" الأفريقى، لأن هذه الذاكرة لم تهتم إلا بذلك "المانسا موسى" أحد ملوك هذه الإمبراطورية بعد مائة عام من تأسيسها لأنه التزم بالإسلام وحمل أطنان الذهب وآلاف العبيد إلى القاهرة (١٣٢٥) مارا بها فى

طريقه إلى مكة فى رحلة الحج الشهيرة فى كتب التاريخ العربية.. وبهذا التجاهل للتفاعل السياسى فى المنطقة فيما بين الممالك أو بين هذه الممالك وسلطنات المماليك (مصر)، والمرينية (المغرب)، وعلى مدى عدة قرون لم يبق من التاريخ إلا أن "العرب" ساعدوا السلطنات الإسلامية لتدمير مملكة "غانا" الأفريقية! وهو ما انطلق به المؤرخون الأوربيون عموما، بل وبقى فى المعارف الدارجة لعدد من الباحثين العرب. وعندما أصبح التاريخ أقرب إلى الفولكلور، أصبح الموروث التاريخى العربى لا يردد فى أحيان كثيرة إلا صلة ملك "كانم وبرنو" بالسلطان قلاوون "عزيز مصر أم الدنيا"، أو على نحو ما تذكر الرسالة الموجهة من ملك مالى "المانسا محمود الرابع" إلى ملك البرتغال بأن" سلطانى لا مثيل له سوى أربعة سلاطين هم: سلطان اليمن، وسلطان بغداد وسلطان القاهرة، وسلطان التكرور".. ولا يذكر ناقلو هذا التاريخ أن القرن السادس عشر (وقت صدور هذه الرسالة) كان بداية تسليم السلطنات الأفريقية والمغربية على السواء لطرق التجارة ومواردها إلى الإسبان والبرتغاليين على الساحل الغربى الأفريقى الذى يصبح ساحة وطنية لمقاومة تجارة الرقيق الأطلنطية، وجهاد "الحاج عمر" ثم "الشيخ عثمان دان فوديو "ضد الاستعمار الغربى الزاحف.

أهمية تاريخ مالى إذن وتأسيس "سونجاتا كيتا" لإمبراطورية مالى عام ١٢٣٥ هى فى التعرف على أسس التوحد الأفريقى والتنوع

الثقافى فى منطقة واسعة من القارة تفاعلت مع العالم العربى الإسلامى بقدر ما برزت ممالكها من "غانا" إلى مالى إلى السنغاى. وسنرى فى تاريخ "الملك الأسد" أنه لم يكن مدمرا "لغانا" الوثنية الأفريقية بقدر ما كان موحدا للمنطقة قبل الغزو الأوربى، بل إن التاريخ الحقيقى لسونچاتا كيتا والملحمة المتناقلة بسيرته لم يشيرا بأى شكل إلى أنه كان من دعاة الإسلام فى المنطقة، بل "حاميا" للجماعات المسلمة فيها.

يعتبر الأستاذ "تمسير نيان" هو المصدر الأساسى الحديث للتأريخ لإمبراطور مالى "سونچاتا كيتا" معترفا بأن المؤرخين الأوربيين لم يتوصلوا للتعرف على هذا الإمبراطور أو على وضعه فى سلسلة ملوك المنطقة إلا عبر ما جاء عن المؤرخين العرب وخريطة ابن خلدون لملوك مالى بوجه خاص. وحتى هذه الأخيرة كانت عبر مقابلات شفوية لابن خلدون مع مصادره فى القاهرة من القادمين من أبناء مالى إليها. ومن هنا اعتبر "تمسير نيان" أن التاريخ الشفاهى يظل مصدرا أساسيا للتاريخ السياسى والاجتماعى فى أفريقيا، ومن هنا حرص على تسجيل ملحمة "سونچاتا" ونشرها عام ١٩٦٠ باعتبارها سيرة إمبراطورية مالى.

"وتمسير نيان" كما قلنا من المدرسة الحديثة التى امتدت مع "جوزيف كى زيربو" ثم شباب المؤرخين فى داكار لكتابة حصيلة جهدهم فى موسوعة التاريخ العام لأفريقيا، ومنشورات معهد "إيفان"،

و"كوديسريا" بداكار (بوبكر بارى..) وما يهمنا ذكره هنا بإيجاز أن "سونچاتا كيتا" لم يكن أول ملوك مالى رغم أنه "الإمبراطور المؤسس "فى النصف الأول من القرن الثالث عشر، فهو فى التاريخ الملك العاشر تقريبا، وأبوه .. هو ملك إحدى الممالك فقط (نيانى) ولذا اهتم بالابن الموعود بالإمبراطورية. وهنا يوجز "تمسير نيان" التشابك بين التاريخ الفعلى والتشكيل الملحمى فيما اتفقت عليه الروايات الشفوية حول شخصية "سونچاتا" فى عدة نقاط:

طفولة "سونچاتا" الصعبة- منفاه فى مملكة ميما- إرسال المبعوثين فى طلبه لإنقاذ المملكة، وعودته إليها، - تحالفه مع رؤساء الممالك الماندية لهزيمة ملك "واجادو" المنافس، وإعلان ميثاق جديد كدستور للإمبراطورية باسم ميثاق "كوروكان فوجان" أو "تقسيم العالم"- إعلان "سونچاتا": "مانسا"، أى إمبراطور لمالى فى "نيانى". ولنر الآن كيف تأتى الملحمة فى ذكر سيرة "سونچاتا".

تداخل المنطق التاريخى- والمنطق الملحمى فى "سونچاتا"

رأينا أن معظم المؤرخين الأفارقة يعتبرون أن الملاحم الشعبية التى توفرها الثقافات الأفريقية، فضلا عن التاريخ الشفاهى عموما بمصادره المختلفة، هى التى تضبط إيقاع التاريخ المكتوب أو تتبادل معه "الحقائق" التاريخية، رغم الأسطورية التى تسم وقائع الملحمة عن الشخصيات والأحداث، أو قوة السحر والخيال وأثرها فى ترتيب

هذه الأحداث.. وقد لا يتفق مع هذا الكلام كثير من النقاد للنوع الملحمي عموما ممن يرون أن الملحمة فن وحده وتعبير مستقل عن الفعل الجمعي والذاكرة الشعبية الجماعية التى تنطلق من الماضى والحاضر على السواء خاصة عند هؤلاء النقاد الذين يأخذون بالقول أنه لا نص واحد "للملحمة" أصلا لا فى الزمان.. ولا فى المكان.

وقد رأينا أن "تمسير نيان" مسجل نص "سونچاتا" – الملحمة – الذى بين أيدينا – رغم اقترابه كثيرا من الواقع التاريخى، إلا أنه ينبه إلى التزامه بالمبدأ النقدى أيضا.

لكن واقع التاريخ لممالك مالى وإمبراطوريتها يظل إلى جانب "نيان" المؤرخ إلى حد كبير، بقدر ما هو إلى جانب نصه الملحمى! وقد بدت ملحمة مثل "سونچاتا" كاشفة أكثر من غيرها للحقائق التاريخية. ففى ملحمة "سونچاتا" تبدو الرغبة فى توحيد مناطق الماندينج والسوسو؛ "تيانى "وواجادو" أى فى منطقة شاسعة من غرب أفريقيا، وتتفاعل فيها روح التعدد الثقافى والميل للتوحد فى آن، وقد يأخذ التفاعل شكلا صراعيا تارة وتحالفيا تارة أخرى. ومن هنا يبدو الحديث "التاريخى" قريبا من الملحمى حين يتناول تكوين "الإمبراطورية" من واقع مشتت سبق إنجازه، ولذا يستدعى "سونچاتا" فى التاريخ والملحمة لإنقاذ مملكة والده المهددة بالانهيار أمام ملك السوسو ذى القوة السحرية..

هنا يبدو جوهر انطلاق العلاقة بين التاريخى والملحمى، خاصة فى لحظة صراعية مثل هذه.

ويدعم الواقع الذى أصبح يقوده "سونچاتا" الشاب من أجل تكوين الإمبراطورية الأفريقية الجديدة (مالى) أجواء تصعيد انتصاراته الملحمية، بل وتوفير فرص "مالى" (التاريخية) فى الاتصال بعرب الشمال الأفريقى، وتيسير تأمين الطرق إلى مصر والمشرق لصالح التجارة الأفريقية (رحلات المانسا للحج) والتبادل الآخذ فى الاتساع نحو المشرق العربى. وهذا الجو يحتاج إلى مملكة قوية ليست مهمتها التبشير أو الفتوح الإسلامية كما كان يدعى أهل الشمال، ولكن مهمتها تنسيق المصالح الكبرى لتجارة الملح والعاج والنحاس والرقيق وصناعة السلاح وهو ما ازدهر بالفعل فى عصر "سونچاتا" ملك الملوك، و"المناسى" من بعده على نحو ما رواه مؤرخو العرب والعجم!.

قد تكون ملحمة "سونچاتا" فى أقرب نصوصها المعروفة قد صيغت فى وقت متأخر عن فترة ازدهار الإمبراطورية نفسها فى القرنين ١٢-١٤ فهكذا يعلمنا التاريخ عن بعض الملاحم العربية الكبرى التى قيل أنها طرحت فى الثقافة العربية فترات التدهور بعد الحروب الصليبية والتهالك الأيوبى والمملوكى حتى وصول العثمانيين وطلائع الاستعمار الحديث. هكذا تبدو أيضا بوادر التبلور الملحمى عن "سونچاتا كيتا" (القرن الثالث عشر) فى وقت قد يكون

متأخرا كثيرا عن ذلك. "وهنا تبدو أهمية الراوى الأفريقى- الجيلى والذى يعتبره "تيان" مصدرًا تاريخيا وملحميا فى نفس الوقت. لأن التاريخ الشفاهى فى معظم أنحاء أفريقيا- فى رأى "تيان" هو "النص الأفريقى" معبرا عنه بأشكال مختلفة منها الملحمة، وأن النخبة التى تكونت على يد الاستعمار بعد ذلك هى التى صممت على أهمية "المكتوب" وعدم اعتماد النص أو الرواية الشفاهية التاريخية إلا عبر منهجية النخبة الأوروبية الحاكمة أو أتباعها ليربطوا بين النفى التاريخى وافتقاد الكتابة الأفريقية. ولا يسلم "تيان" وغيره من المدرسة الأفريقية الحديثة بأن تدهور وضع الراوى حاليا يمكن أن يعبر عن عدم قيمة النصوص التاريخية أو الملحمية الراسخة.

لذلك حرص "تيان" على تسجيل "تقديم" "راوية"- كوياتيه- لنفسه بشكل يؤكد موقفه هو بالأساس تجاه النص الشفاهى الملحمى ودلالته التاريخية. سأضع هنا بدورى فاتحة الكتاب- ملحمة سونچاتا أو ملحمة شعب الماندينج كما يقدمها نص تمسير نيان عام ١٩٦٠:

"كلام الراوى ممادو كوياتيه":

أنا راو، أنا "جيلى" ممادو كوياتيه Djeli Mamadou Kouyaté ابن بنتو كوياتيه Binto Kouyaté وجيلى كيديان كوياتيه Djeli Kedian Kouyaté، معلم فى فن الكلام، وكنا منذ أزمنة سحيقة فى خدمة أمراء "كيتا" Keita الماندينج: نحن حقائب الأقوال، حقائب تخبئ

أسرارا عتيقة تغطى عدة قرون من الزمن، لا يخفى فن الكلام عنا سرا، بدوننا تسقط أسماء الملوك فى غياهب النسيان. نحن ذاكرة الشعوب، وبالكلام نهب الحياة لأحداث الملوك وأعمالهم أمام الأجيال الناشئة.

لقد أخذت علمى عن أبى الجيلى كيديان، الذى أخذه أيضا عن أبيه. ليس فى التاريخ ما يخفى علينا، نعلم الجمهور ما نريد له أن يتعلمه، فنحن من يحتفظ بمفاتيح الاثنى عشر بابا للماندينج.

كنت أعرف قائمة بكل الملوك الذين تعاقبوا على عرش "الماندينج"، وأعرف كيف انقسمت الشعوب السوداء إلى قبائل لأن أبى ورثنى كل معارفه: أعرف لماذا يسمى هذا كمارا، وذلك كيتا، والآخر سيديبيه، أو تراوريه. فلكل اسم معنى ومدلول سرى.

علمت ملوكا تاريخ أجدادهم كى يتخذوا من حياة القدامى مثلا لهم؛ لأن العالم قديم والمستقبل يخرج من رحم الماضى.

كلامى صاف، ومنزه عن كل كذب؛ إنه كلام أبى وكلام والد أبى. سأقول لكم كلام أبى كما تلقيته عنه؛ فرواة الملك لا يعرفون الكذب وحينما ينشب عراك بين القبائل فنحن من يحكم فى هذا الخلاف، لأننا الأمناء على العهود التى قطعها الأسلاف.

أنصتوا لكلامى؛ أنتم يا من تريدون المعرفة؛ فمن فمى تتعلمون التاريخ... تاريخ الماندينج، ومن كلامى ستعرفون تاريخ جد

"الماندينج العظيم، تاريخ ذلك الذى تفوق بمآثره على ذى القرنين Djoul Kara Naini، الذى سطع نوره من الشرق على كل بلاد الغرب، أنصتوا لتاريخ ولد العجل وولد الأسد.

سأحدثكم عن ماغان سونجاتا" عن نارى جاتا" عن سوجولون جاتا، عن نارى ماغان جاتا؛ أى عن الرجل ذى الأسماء المتعددة الذى عجز العرافون عن المساس به.

المنطق الملحمى

تقع أحداث الملحمة فى منطقة ممتدة من وسط الصحراء الكبرى شرقا والمعروفة فى كتب الرحالة ببلاد السودان، وتمتد حتى سنجامبيا ومرتفعات فوتاجالون غربا على ساحل الأطلنطى، ومع منابع نهر السنغال ونهر النيجر.. كانت جاو وتومبوكتو فى الشرق تتطلع دائما إلى مد نفوذها إلى واجادو غربا....

الملحمة تتحدث عن أبناء الماندينج الذين لم يكونوا من أبناء البلاد الأصليين؛ إنهم قدموا من الشرق، وكان بيلالى (بلال) الجد الأول للكيتا هو الخادم الأمين للنبى محمد.. وله سبعة أبناء؛ الابن البكر "لوالو"- أو الأول- هو الذى رحل من المدينة المقدسة واستقر فى الماندينج.. فى ساحة "الماندينج" نشأت عدة ممالك صغيرة- هى فى الملحمة والتاريخ اثنى عشر- يقود أحدها "ماجان كون فاتا"- ملك "تيانى" المتواضع القدر أمام هجمات سوماؤور ملك غانا الذى يتحدى

العالم من على عرش "السوسو" وهزم تسع ملوك ليصنع من رؤسهم تمائم فى غرفته السحرية المرعبة..

لكن عرافين يبشرون "ماجان" وهم يحركون بين أيديهم الأصداف الاثنى عشر بأن المانديج ستخرج من الظلام، وسيأتى النور من الشرق على يد ملك قادم؛ طفل لم يولد بعد؛ تضعه امرأة دميمة محدبة الظهر يتوجب عليه أن يتزوجها لأنه مقدر أنها ستكون أم ذلك الذى سيقود المانديج، ويهزم واجادو، وسيكون الطفل سابع نجم والفاتح السابع للأرض، وأقوى من ذى القرنين...

صيادون قادمون للملك يتصدون للعجل غريب الأطوار على مدخل القرية (مثل ثعبان غانا الذى كانت تقدم له كل عام فتاة كأضحية)، لكن الصيادين يقتلون عجل نيانى.. وتتطور الأحداث حتى يأتون بالمرأة المشوهة "سوجولون" إلى الملك ماجان.. وحتى تلد الطفل سونجاتا قعيدا كسيحا غير صالح ليكون وريثا للعرش، إذ يتقدم عليه أبناء الزوجة الأخرى... فيرثوا الملك، ويطردوا الطفل مع أمه المشوهة إلى مملكة "ميما"، فترعاة حتى يهب قويا بطوليا.. فى الثامنة من عمره، حاملا قضيب الحديد الذى لا يقوى على حمله إلا ستة أشخاص... ويشتهر بالقوة؛ حتى يستدعيه أهل مملكة "نيانى" لإنقاذ المملكة إزاء هزيمة أخوته (أمام ملك "السوسو"... ملك غانا. ويشتهر "سونجاتا" الملك الأسد ابن المرأة العجل بأنه حيث حل تحل السعادة فى كل العالم... مقارنا دائما بذى القرنين الذى يقول "تمسير

نيان" أنه الإسكندر الأكبر.. "الفاتح ما قبل الأخير للعالم" (عند الماندينج)؛ حيث سونچاتا هو الفاتح السابع والأخير... يقود "سونچاتا" جيوش نيانى والممالك الصغيرة مرتديا لبس أمير مسلم، يزحف بها شرقا وغربا، ويهزم ملك "واجادو" (غانا) ويعلن نيانى مركزا لإمبراطورية مالى.. وحيث الطريق إلى مكة لابد أن يمر "بنيانى". ويبدأ سونچاتا بعقد التحالفات، ويعطى ملك غانا نفسه مكانته فى الحلف الجديد، الذى يعد ميثاق العالم أو ميثاق تقسيم العالم (١٢٣٦) متضمنا المبادئ الإنسانية التى تحكم بها الإمبراطورية.

ماذا عن نهاية سونچاتا الدرامية؟ معروف الآن أن رواة الماندينج لا يحكون أسرار موت الملوك، ولذا يشير "تمسير نيان" إلى الروايات التاريخية فى هذا الصدد، والتى تتعدد بين جمهور الماندينج حتى الآن. ويذكر مؤرخ فرنسى مثل "ديلافوس"، روايتين، أحدهما غرق سونچاتا فى نهر سنكرانى الذى تقع عليه "نيانى"، والثانية أنه قتل بسهم طائش أثناء احتفال عام فى نيانى. ويرجح "تمسير نيان" – كمؤرخ – رواية الغرق قرب المكان الذى يقال أنه دفن فيه، ويقول: "رغم كل الروايات فإن المحتمل هو أن يكون سونچاتا قد مات غرقا أما الملحمة فتقول على لسان الراوى كوياتيه:

"الرواة هم موضع الأسرار، لا يفشونها مطلقا.. ويرقد ماجان سونچاتا، آخر غزاة الأرض؛ ليس بعيدا عن "نيانى نيانى"... أى فى بالاندوجو.. مدينة السد"!

وقد استمرت هذه الإمبراطورية حوالى العقدين حتى انهارت على يد الزحف المغاربى المتعاون مع أطراف الإمبراطورية (السنغاى فى جاو) من جهة ووصول الاستعماريين البرتغاليين من جهة أخرى.

الملحمة وتاريخ الإمبراطورية معروفان جيدا على نطاق عالمى، حاليا على الأقل، استخدمت عناصرهما من أكثر من قوى عرفت المنطقة تباعا. فالعرب اعتبروها مركز انتشار الإسلام فى غرب القارة- بلاد السودان- والغربيون اعتبروها أداة العرب والمسلمين لتدمير مملكة "غانا الأفريقية" وإقامة إمبراطورية موالية لهم فى تسيير تجارة الرقيق، وكثير من المثقفين الأفارقة مضوا فى موجة الاستقلال مع التفسير الأوروبى عن "أفريقية" غانا ضد إسلام مالى، مدعومين بأفكار بعض الزعامات الزنجية والأفريقية الجديدة (سنغور- نكروما) والحماس لدى الأفرو أمريكيين عن (الوطن الأم أفريقيا) التى هدد العرب أصوليتها الزنجية- الأفريقية. أما "تمسير نيان" فإنه يعكس مدرسة فى التاريخ الأفريقى تمتد من الشيخ "أنتا ديوب" نفسه، ترى أن الإسلام كان عنصر توحيد بين كثير من الأفارقة، ولا يشترط التعامل معه كمجرد أداة فى السلطنات العربية أو تجارها؛ حيث كانت الممالك الأفريقية نفسها تزدهر فى نفس الفترة عبر تبادل تجارى واسع مع العرب شمال القارة والمشرق العربى، وأن مملكة مالى لم تكن مجرد مملكة إسلامية على نحو ما قدمها الرحالة العرب.

هنا يبدو دور الملحمة التى لم تكشف عن أى طابع إسلامى جذرى عند سونچاتا أو فى مملكة مالى، بل تتوازن الأمور الإسلامية والأسطورية من حوله؛ حيث يبدو إمبراطورا بالأساس يلبس مثل أمراء المسلمين، وكأنه مجرد مغرم بتقليدهم، لكنه حريص فى الاجتماع التأسيسى مع ملوك الإمبراطورية – كما تروى الملحمة، أن يعلن "ميثاقا جديدا" فى أحد مراكز نفوذه "كروكان" فوجان "يسميه" تمسير نيان "بالدستور الإمبراطورى. ويرد "نيان" فى أحدث مقالاته على القائلين بأن الملحمة فى صيغتها التى قدمها هو وأمثاله فى الستينيات مع بدء النهوض الوطنى فى أفريقيا إنما ساندت "حكام الوحدة الوطنية" الاستبداديين باسم البطولة التاريخية! يقول نيان، إن الملحمة تكشف روح "التنوع الثقافى" فى مساحة واسعة عرفت بإمبراطورية مالى، ولم تتحدث عن تصارع عرقى أو قبلى أو دينى، على نحو ما يصوره كثير من الباحثين الغربيين. فملحمة "سونچاتا كيتا" هى وثيقة عن المساحة الواسعة لثقافة "الماندى" التوحيدية فى غرب أفريقيا، وليست مجرد تأريخ لمملكة قبلية.

قراءات

(*) D.T. Niane: Soundjata: ou L`Epoupée Mandingue Presence Africaine- Paris 1960.

الترجمة للعربية: توحيدة على توفيق- المركز القـومى للترجمـة- القاهرة ٢٠٠٩.

(*) D.T. Niane: interview: Patrimoine Histoire en Afrique, no, 3 Dakar 2008.

٢- ج.ت- نيان: مالى والتوسع الثانى للماندينج فى: تاريخ أفريقيـا العام- الطبعة العربية المجلد الرابع -الفصل السادس- اليونسكو- باريس ١٩٧١.

٣- م.لاى تال: تدهور إمبراطورية مالى. فى: تاريخ أفريقيا العـام- الفصل السابع- الطبعة العربية- المجلـد الـسابع -اليونـسكو- باريس ١٩٧١.

٤- فنسان مونتاى: الإسلام فى أفريقيا السوداء ترجمة: إليـاس حنـا إلياس- دار أبعاد- بيروت- ١٩٨٣.

٥- بوبكر بارى: سنجامبيا: دفاع من أجل تاريخ جهـوى- ترجمـة مصطفى أعشى وأحمد لقمهرى- معهـد الدراسـات الأفريقيـة- الرباط- ٢٠٠٠.

٦- عبد الحميد حواس: أنواع الحكى وطرق الأداء، محمد حافظ دياب: حوار الشفاهى والكتابى: السيرة الهلالية نموذجا، فى: الحكى الشعبى بين التراث المنطوق والأدب المكتوب أعمال المؤتمر السابع لقسم اللغة الفرنسية وآدابها مارس ٢٠٠٩ – دار العين للنشر القاهرة ٢٠٠٩.

٧- مقابلات شخصية مع البروفيسور تمسير نيان (تونس- داكار) (٢٠٠٦-٢٠٠٧).

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب، أو بالأحرى هذا العمل الأدبى، هو لراوٍ griot مغمور، من قرية جيليبا كورو Djeliba Koro، الواقعة فى محيط منطقة سيغيرى Siguiri بغينيا. إننى أدين له بكل شيء، فقد أتاحت لى معرفتى ببلاد المالينكيه أن أنوّه صراحة، بعلم وموهبة رواة الماندينج التقليديين فيما يتصل بالتاريخ.

يتعين إذن، ومنذ الآن، إزالة الغموض، فالآن عندما نتحدث عن الرواة، يتبادر إلى الذهن هذه "الفئة من الموسيقيين المحترفين" التى تكونت للعيش على أكتاف الآخرين، فإذا قيل راوٍ فإننا نستدعى للذاكرة هؤلاء من عازفى الجيتار الكثر الذين ينتشرون فى مدننا، ويبيعون "موسيقاهم" فى "أستوديوهات" التسجيل فى كل من داكار وأبيدجان.

فإذا ما تحول الراوى – الآن – إلى الاستفادة من فنه الموسيقى، وحتى إلى العمل بيديه كى يعيش، فإن الأمر لم يكن كذلك دائما فى أفريقيا قديما. كان الرواة فيما مضى هم "مستشارو" الملوك، وكانوا يحافظون على "دساتير" الممالك، وذلك بعملهم الوحيد بالذاكرة. وكان هناك راوٍ لكل أسرة أمير، ملزما بالحفاظ على التراث، وكان الملوك يختارون معلمى الأمراء الشبان من بين الرواة. وفى المجتمع الأفريقى الذى تميز بتراتبية كبيرة فيما قبل

الاستعمار، حيث كان لكل موضعه، كان يبدو لنا الراوى كواحد من أعضاء هذا المجتمع الأكثر أهمية، لأنه – وبسبب غياب الوثائق – هو الذى حافظ على العادات والتراث ومبادئ حكم الملوك. لقد أجبرت القلاقل الاجتماعية، الناشئة عن الغزو، هؤلاء الرواة على العيش – مثلما هو حادث الآن – بطريقة مختلفة: كما يستفيدون مما كان يشكل نفوذهم – إلى ذلك الحين– من فن الكلام والموسيقى.

ومع ذلك، يمكن أن نجد الراوى الذى يكاد يبدو فى إطاره القديم، بعيدا عن المدينة، مقيما فى القرى العتيقة للماندينج من أمثال كا – با Ka - ba أو كانجابا Kangaba وجيليبا – كورو، وكرينا Krina... إلخ، التى تتباهى بأنها لا تزال تخلد الإرث الذى خلفه الأجداد. وعموما ففى كل قرية من "ماندينج العتيقة" هناك أسرة لراوٍ تقليدى، تحافظ على التراث التاريخى وتعلمه؛ بل إن الشائع أنه توجد قرية من أصحاب المأثور لكل مقاطعة من أمثال: فاداما Fadama للهامانا Hamana (كوروسا، غينيا Guinée، Kouroussa) وجيبلا Djeela (دروما– سيغيرى Droma, Siguiri وكيلا Keyla السودان الغربى) .... إلخ.

لقد علّمنا الغرب – للأسف – أن نحتقر المصادر الشفاهية فى ما يخص التاريخ، فكل ما لم يكتب غثا أو ثمينا – كان يعد بلا سند. كما اختزلت النظرة بين بعض قصار النظر من المثقفين الأفريقيين إلى نظرة احتقار للوثائق "الناطقة" أى للرواة. وليؤمنوا أننا لا نعرف

شيئا، أو نعرف القليل فقط، عن ماضينا لعدم توافر الوثائق المكتوبة. ويبرهن هؤلاء ببساطة أنهم لا يعرفون بلدهم سوى عن طريق البيض. إن كلام الرواة التقليديين جدير بالتقدير لا الازدراء.

والراوى الذى يمتلك ناصية التاريخ فى قرية ما هو أستاذ على أكبر قدر من الاحترام ونعرفه باسم بيلين – تيغى Belën- Tigui، وهو الذى طاف بكل الماندينج Mandingue وتنقل من قرية لأخرى يتلقى المعرفة من الأساتذة العظام، وتعلم فن الحكى الشفاهى للتاريخ على مدى سنوات طوال، فضلا عن أدائه اليمين ألاّ يقوم بتعليم أحد سوى ما تطلبه منه "مؤسسته". إذ يقول الرواة: "كل علم حقيقى يجب أن يكون سرا". أليس صاحب المأثور أستاذًا فى فن التلميح. فهو يتحدث بصيغ قديمة مهجورة، أو بالأحرى يحول الوقائع إلى أساطير مسلية من أجل الجمهور، تكون ذات معنى خفى بما لا يثير شك العامة قط.

لقد تفتحت عيناى بالكاد على أسرار أفريقيا الخالدة هذه، وفى ظمئى للمعرفة كان يتعين علىّ أن أضحى بغرورى البسيط، كمثقف عصرى، أمام صمت التراث حين تلح أسئلتى البلهاء فى الكشف عن سر ما؟

هذا الكتاب هو إذن ثمرة أول اتصال برواة الماندينج التقليديين الأكثر أصالة ولست سوى مترجم، أدين بالفضل لأساتذة فاداما،

وجيلبا كورو، وكيبلا، وبوجه أخص للجيلي مامادو كوياتيه Djeli Mamadou Kouyaté، من قرية جيلبا كورو (سيغيرى) بغينيا.

عسى أن يوقظ هذا الكتاب أكثر من أفريقي، ويحثه على الجلوس بتواضع بجانب القدامى، والاستماع إلى كلام الرواة، الذين يعلمون "الحكمة" و"التاريخ".

جبريل تمسير نيان

D.T.N

النص

كلام الراوى مامادو كوياتيه

أنا راوٍ، أنا جيلى مامادو كوياتيه Djeli Mamadou Kouyaté ابن بنتو كوياتيه Bintou Kouyaté وجيلى كيديان كوياتيه Kouyaté Djeli Kedian، معلم فى فن الكلام. وكنّا منذ أزمنة سحيقة فى خدمة أمراء كيتا Kéita الماندينج: نحن حقائب الأقوال، حقائب تخبئ أسرارًا عتيقة تغطى عدة قرون من الزمن. لا يُخفى فن الكلام عنا سرا، بدوننا تسقط أسماء الملوك فى غياهب النسيان. نحن ذاكرة الشعوب، وبالكلام نهب الحياة لأحداث الملوك وأعمالهم أمام الأجيال الناشئة.

لقد أخذت علمى عن أبى جيلى كيديان، الذى أخذه أيضا عن أبيه، ليس فى التاريخ ما يخفى علينا، نُعلّم الجمهور ما نريد له أن يتعلمه، فنحن من يحتفظ بمفاتيح الاثنى عشر بابا للماندينج [١].

كنت أعرف قائمة بكل الملوك الذين تعاقبوا على عرش "الماندينج"، وأعرف كيف انقسمت الشعوب السوداء إلى قبائل، لأن أبى ورّثنى كل معارفه: أعرف لماذا يسمى هذا كامارا Kamara، وذاك كيتا Kéita، والآخر سيديبيه Sidibé أو تراوريه Traoré، فلكل اسم معنى، ومدلول سرى.

علّمت ملوكا تاريخ أجدادهم، كى يتخذوا من حياة القدامى مثلا لهم، لأن العالم قديم، والمستقبل يخرج من رحم الماضى.

كلامي صافٍ، ومنزه عن كل كذب، إنه كلام أبى، وكلام والد أبى. سأقول لكم كلام أبى كما تلقيته عنه، فرواة الملك لا يعرفون الكذب، وحينما ينشب عراك بين القبائل، فنحن من يحكم فى هذا الخلاف، لأننا الأمناء على العهود التى قطعها الأسلاف.

أنصتوا لكلامي، أنتم يا من تريدون المعرفة، فمن فمي تتعلمون تاريخ الماندينج ومن كلامي ستعرفون تاريخ جد "الماندينج العظيم"، تاريخ ذلك الذى تفوق بمآثره على ذى القرنين Djoul Kara Naïni (٢). الذى سطع نوره من "الشرق" على كل بلاد "الغرب".

أنصتوا لتاريخ ولد "العجل" "Buffle" وولد "الأسد" "Lion" (٣).

سأحدثكم عن ماغان سونجاتا Maghan Sondjata ، عن ماري جاتا، عن سوجولون جاتا، عن ناريه ماغان جاتا، أى عن الرجل ذى الأسماء المتعددة الذى عجز العرافون عن المساس به.

الهوامش:

(١) حسب الرواة التقليديين، كانت بلاد الماندينج الأصلية، قد تألفت من اثنى عشر مقاطعة، وبعد غزوات سونچاتا زاد عدد المقاطعات بدرجة كبيرة، ويبدو أن بلاد الماندينج الأصلية كانت كونفودرالية من قبائل مالينكيه الرئيسية، مثل: كيتا، كونديه Kondé، تراوريه، كامارا، وكوروما Koroma.

(٢) المقصود هنا الإسكندر الأكبر Alexandre Le Grand الذى لقبه الإسلام بذى القرنين Doul Kar Naïn، وتجرى المقارنات غالبا لدى كل أصحاب المأثور فى بلاد المالينكيه بين الإسكندر وسونچاتا، وتوضع الرحلة من الغرب إلى الشرق للأول مقابل رحلة السير للثانى من الشرق إلى الغرب.

(٣) العجل: وفقا للتراث، كان لأم سونچاتا طوطم هو العجل والمقصود هنا هو أسطورة العجل، والذى يقال إنه دمر بلاد دو "Do". أما "الأسد" فكان الطوطم الجد لآل كيتا. إذن سونچاتا هو ابن الأسد من خلال أبيه، وابن العجل من خلال أمه.

ملوك الماندينج الأوائل

أنصتوا إذا، أنتم يا أبناء الماندينج، وأطفال الشعب الأسود، أنصتوا لكلامى، سأحدثكم عن سونچاتا Soundjata، أبى البلاد المضيئة Clair- Pays، بلاد السافانا، والجد الأكبر لأولئك الذين يشرعون أقواسهم، والسيد لمائة ملك من الملوك المظفرين.

سأتحدث عن سونچاتا أى ماندينج ديارا Manding- Diara، وأسد الماندينج وهو سوجولون جاتا، ابن سوجولون Sogolon، أى ناريه ما غان جاتا Naré Maghan Djata، ابن ناريه ماغان، أى سوجو سوجو سيمبون سالابا Sogo Sogo Simbon Salaba، وهم جميعا أبطال بأسماء متعددة.

سأحدثكم عن سونچاتا، ذلك الذى ستدهش مآثره الناس لأماد طويلة. كان سونچاتا عظيما بين الملوك، لا يُقارن بين الرجال، محبوبا من الله، لأنه كان آخر الفاتحين العظام.

فى أول الأمر كانت الماندينج مقاطعة لملوك بامبارا Bambara، هؤلاء الذين يُسمون الآن بالمانينكا Maninka [1]، سكان الماندينج لم يكونوا من أبناء البلاد الأصليين: فقد قدموا من الشرق. وكان بلال بوناما Bilali Bounama، وهو الجد الأول للكيتا Kéita، وهو الخادم الأمين للنبى محمد Mohammadou [2] (سلام الله عليه).

وكان لبلال بوناما سبعة أبناء: الابن البكر الأوّل Lawalo، كان قد رحل من المدينة المقدسة واستقر فى الماندينج، وكان للأول ابن يُدعى لاتال كلابى Latal Kalabi، وهذا بدوره له ابن يدعى داماك كـــلابى Damal Kalabi، وهذا الأخير له ابن هو لاهيلاتول كلابى Lahilatoul Kalabi.

وكان لاهيلاتول كلابى هو أول أمير أسود ذهب إلى مكة للحج، وفى طريق العودة كان قد نُهب من عصابات الصحراء، وشُتت رجاله، ومات البعض من العطش، لكن الله العلى القدير أنقذ لاهيلاتول كلابى لأنه كان رجلا عادلا. فقد ابتهل إلى الله، فظهر له الجن واعترفوا به ملكًا. وقد استطاع الملك لاهيلاتول كلابى وبعد سبعة أعوام من الغياب– وبفضل من الله العلى القدير – يعود إلى الماندينج، حيث لم يكن يتوقعه أحد قط.

كان لدى لاهيلاتول كلابى ابنان: البكر هو كلابى بومبا Kalabi Bomba، والصغير هو كلابى دومان Kalabi Dauman. اختار الابن الأكبر الحكم الملكى، وحكم؛ أما الأصغر ففضل الثروة والغنى، وصار جدًا لكل أولئك الذين يذهبون من بلد إلى آخر بحثا عن الثروة.

وكان لكلابى بومبا ابن يُدعى مامادى كانى Mamadi Kani، وكان ملكا صيادا مثل ملوك الماندينج الأوائل، وهو الذى ابتكر

السيمبون Sïmbon [٣] أى صافرة الصياد، ودخل فى اتصال مع الجن فى الغابة والأدغال، ولم يخف هؤلاء سرا عليه، إذ كان محبوبا من كوندولون نى سانيه [٤] Kondolon Ni Sané.

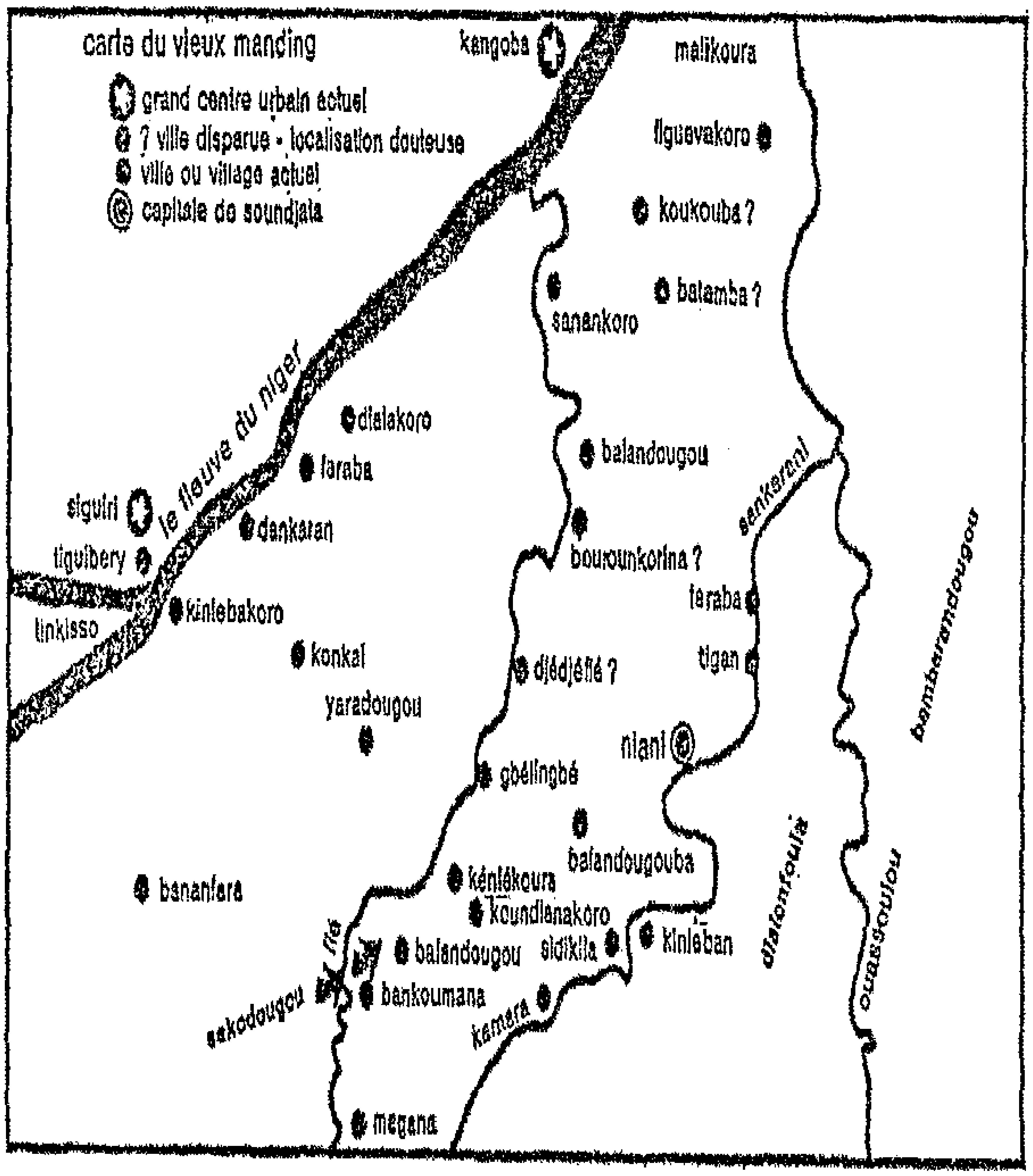

خريطة الماندينج القديمة

* المراكز الحضرية الكبرى الحالية

? مدن اختفت أو مواقع موضع شك

مدن وقرى حالية

عاصمة سونجاتا

وكان أتباعه عديدين حتى إنه شكل منهم جيشا، صار خطيرا، كان يجمعهم دائما فى الدغل يعلمهم فنون الصيد والقنص، وهو الذى كشف للصيادين عن الخصائص الدوائية للأعشاب الطبية التى تشفى الجروح والأمراض، وأصبح ملكا لبلاد مترامية الأطراف بفضل قوة أتباعه، وبهم غزا مامادى كانى كل البلاد التى تمتد من السوكارانى Saukarani حتى بوريه Bouré. وكان لدى مامادى كانى أربعة أبناء هم: كانى سيمبون Kani Sïmbon وكانينوجو سيمبون Kanignogo Sïmbon، وكابالا سيمبون Kabala Simbon وسيمبون بامارى تانيو جو كيلين Sïmbon Bamari Tagnogo Kélin.

وكانوا جميعهم خبراء في فن الصيد وجديرين بلقب سيمبون. هذا هو أصل بامارى تانوجو كيلين الذى اعتلى الحكم، كان له ابن هو امبالى نينيه M, Bali Néné، ولهذا بدوره ابن هو بللو Bello، ولهذا ابن هو بللو باكون Bello Bakön، ولهذا ابن أيضا هو ماغان كون فاتا Maghan Kon Fatta ويقال له Frako Maghan Keigu أى ماغان الجميل أو الوسيم.

وماغان كون فتا هو والد سونجاتا العظيم، الذى كان له ثلاث زوجات وستة أبناء: ثلاثة أولاد وثلاث بنات: وكانت زوجته الأولى تسمى ساسوما بيريتّه Sassouma Bérété، ابنة أحد المارابو(*) الكبار،

(*) المارابو Marabout هى أسر المتدينين، وأصلها عند أهل المنطقة مـن المورى Mouri أى رجال الدين (المترجمة).

كانت والدة كل من الملك دانكاران تومان Dankaran Touman والأميرة نانا تريبان Nana Triban، أما الزوجة الثانية سوجولون كيجو Sogolon Kedjou فكانت والدة سونچاتا وأميرتان سوجولون كولونكان Sogolon Kolonkan وسوجولون جامارو Soglon Djamarou، أما الزوجة الثالثة فكانت من الكامارا Kamara وكانت تدعى نامانجيه Namandjé، وكانت والدة ماندينج بورى Manding Gory أو ماندينج باكارى Manding Bakary الذى كان أفضل صديق لأخيه سونچاتا.

الهوامش:

(١) (مانينكا– ماللى Maninka- Malli) – يُسمى سكان بلاد الماندينج بالمانينكا أو الماندينكا، ومالى ومالينكيه Mali et Malinké هو تحريف "للبيل" Peulh لغة الماندينج والماندينكا. وكلمة مالى Mali بالمالينكية تشير إلى سيد قشطة، ولا يستبعد أن مالى كانت الاسم الذى أطلق على إحدى عواصم الأباطرة، وتدل إحدى المأثورات أن سونچاتا قد تغير إلى مالى "Mali" فى السنكارى "Sankari"، أليس من المثير للدهشة أن نجد قرى فى بلاد الماندينج القديمة تحمل اسم "مالى" Mali. ويمكن أن يكون هذا الاسم قديما اسما لمدينة كبيرة، كما توجد قرية تسمى ماليكوما Malikoma أى (مالى التاسعة) وذلك فى بلاد الماندينج القديمة.

(٢) (بلال ومحمدو Bilali et Mohammadou) – وكما كان يحدث فى الأسر المسلمة فى العصور الوسطى، كان همُّ أباطرة مالى أن يرتبطوا بأسرة النبى أو على الأقل إلى أحد كان قريبا من "النبى Nabi".

وفى القرن الرابع عشر، نرى مانسا موسى Mansa Moussa يعود إلى بلاد الماندينج بعد أدائه فريضة الحج، ومعه ممثلون للقبيلة العربية قريش (القريشيين Qoréichites) (قبيلة محمد) ليضفى بركة نبى الله Prophéte d`Allah على إمبراطوريته.. وبعد كانكون موسى

Kankon Moussa قلّده العديد من أمراء الماندينج، وعلى وجه الخصوص أسكيا محمد Askia Mohamed فى القرن السادس عشر.

(٣) سيمبون Sïmbon السيمبون حرفيا هو صافرة الصياد، والكلمة أيضا نعت شرفى للاحترام تستعمل لتمييز الصياد العظيم. ويطلق (سيمبون سى Sïmbon Si) على السهرة بجوار المتوفى التى ينظمها الصيادون فى منطقة ما تكريما لزميلهم المتوفى.

(٤) كوندولون Kondolon هى إلهة الصيد، ولها رفيق لا ينفصل عنها هو سانيه Sané، وهاتان الإلهتان دائمتا الارتباط ببعضهما، ويتضرع الناس لهما كندين وعلى نفس المستوى من التضرع، هذه الإلهة المزدوجة لها خاصية الوجود فى كل مكان، وحينما تظهر لصياد، فغالبا يلقى فريسته، ويتوجب على هذه الإلهة المزدوجة أن تحرس الدغل والغابة، وهى أيضا رمز للاتحاد والمحبة، ولا يجب أن نتضرع إليها بطريقة منفصلة، فإن ذلك يتسبب فى التعرض لعقوبات شديدة القسوة. وهما أحيانا يتنافسان فى البراعة والحذق، لكنهما لا يختلفان مطلقا.

وفى الهامانا (كوروسا) يُسند إلى مامادى كانىMamadi Kani، قسم يؤديه الصياد قبل أن يستقبله سيمبو Sïmbou وإليكم القسم:

١- هل تريد إرضاء سانيه ورفيقته كوندولون قبل أبيك (أى أنه يجب إيثار السيد سيمبون حين تكون فى مواجهة أمر من هذا وأمر من الوالد).

٢- هل تعلم أن الاحترام لا يراد به العبودية، وعليك أن تكنّ احتراما وخضوعا لسيدك سيمبون على الدوام.

٣- هل تعلم أن الكولا جيدة، وكذا الدخن، وأن العسل حلو.. إلخ فقدمها لسيدك.

إذا كانت الإجابة بالإيجاب.. فالمتدرب على الصيد سوف يُقبل.

وفى بعض مقاطعات سيغيرى، ينسب هذا (القسم) إلى الله- مامادى Allah-Mamadi الذى لم يكن ملكا.

المرأة العجل(*)

كان قد ذاع صيت ماغان كون فاتا Maghan Kon Fatta أبا لسونجاتا فى كل البلاد لوسامته، بل كان أيضا ملكا طيبا محبوبا من كل الشعب. وفى عاصمته نيانيبا Nianiba (1) كان غالبا ما يهوى الجلوس تحت شجرة القابوق الكبيرة التى تشرف على قصره فى كانكو Canco، لقد حكم ماغان كون فاتا منذ مدة طويلة، وكان ابنه الأكبر دانكاران تومان Dankaran Touman قد بلغ العاشرة من العمر، وهو الذى كان يأتى للجلوس بالقرب من والده على جلد الثور.

وحدث ذات يوم، حين كان الملك يجلس كعادته تحت الشجرة تحيط به حاشيته، أن رأى شخصا قادما باتجاهه يرتدى زى الصياد: يضع السروال المشدود، مما يرتديه المحظيون لدى إلهة الصيد كوندولون وقرينها سانيه، وقميص قد خيط بالنقود الصدفية والتى تفصح عن مهارته فى فن الصيد، اتجه الحضور جميعهم نحو القادم المجهول، الذى كان يحمل قوسا وقد صقل من الاستعمال ويومض فى ضوء الشمس. تقدم الرجل حتى بلغ مجلس الملك الذى كان قد تعرف عليه من وسط حاشيته، انحنى وقال له: "أحييكم يا ملك

(*) المراد عجلا وحشيًا.

الماندينج، أحييكم جميعا يا أهل الماندينج، أنا صياد أتعقب الفريسة، وقادم من سانجاران Sangaran وقد قادتنى إلى هنا ظبية صغيرة عنيدة، قادتنى إلى حيث جدار مدينة نيانيبا، وببركة سيدى سيمبون العظيم أصابتها أسهمى. ورقدت ليس ببعيد عن أسواركم، وكما يملى الواجب، يا مليكى، جئت لأقدم لكم نصيبكم"، وأخرج ساقا من حقيبته الجلدية، عندئذ أمسك نيانكومان دووا GnanKouman Doual راوى الملك بالساق وقال: "أيها الغريب، مهما كنت، فأنت ضيف الملك، لأنك احترمت التقاليد، هيا لتأخذ مكانك بجانبنا على الحصير، فالملك سعيد لأنه يحب الرجال العادلين"، وافق الملك بإيماءة من رأسه، كما وافقت حاشيته جميعا، واستطرد الراوى بلهجة أكثر حميمية: "أنت يا من قدمت من السانجاران بلاد ذوى الحظوة لدى آلهة الصيد كوندولون وقرينها سانيه أنت يا من تعد دون شك أستاذا ضليعا فى العلم، ألا تريد أن تزودنا بمعارفك؟ ألا تريد أن تعلمنا بكلامك فلا شك أنت زرت العديد من البلاد".

وأومأ الملك – الذى ظل صامتا – برأسه موافقا، وأضاف أحد أفراد الحاشية:

"إن صيادى السانجاران هم أفضل العرافين، فإذا شاء الأجنبى سيمكننا أن نتعلم منه الكثير.

وهمّ الصياد بالجلوس بالقرب من نيانكومان دووا، الذى ترك له مكانا فى طرف الحصير وقال:

– "يا راوى الملك، لست من الصيادين" الذين يتمتعون بالمهارة فى القول أكثر من العمل اليدوى.. لست حكاء أتنبأ بالمستقبل، و لا أبغى إساءة استغلال سذاجة الناس الطيبين، وبفضل العلم الذى زودنى به أستاذى، يمكننى أن أزهو بأننى عرّاف بين العرافين.

وأخرج من حقيبته الجلدية "Sassa" (٢) اثنتى عشرة قطعة من الصدف وألقى بها على الحصير، واتجه الملك وحاشيته صوب "الغريب" الذى دلّك بيده الخشنة الصدفات الاثنتى عشرة اللامعة، أسّر نيانكومان دووا إلى الملك بملاحظته بأن "العراف" كان أيسر؛ حيث اليد اليسرى هى يد الشر، وفى فنون الكهانة يقال إن الأشول هو الأفضل، وهمهم الصياد ببعض الكلام غير المفهوم بصوت خفيض، وحرّك بيده الأصداف الاثنتى عشر وأعادها فأخذت أوضاعًا مختلفة وهو يفكر مليا، وفجأة رفع عينيه وقال للملك:

– يا مليكى.. "العالم ملىء بالغرائب والأسرار وكلها مخبأة، ولا نعرف سوى ما نراه، فشجرة القابوق تخرج من حبة صغيرة، وهى التى تتحدى العواصف، لا تزن أكثر من حبة أرز، والممالك مثل الأشجار، البعض يصير قابوقة والبعض يظل قزما، تغطيه شجرة القابوق القوية بظلها. فمن ذا الذى يستطيع التعرف فى طفل على ملك عظيم قادم، إذ إن المصير العظيم للصغير، وكذا الحقيقة والكذب هى كلها ترضع من نفس الثدى؛ فليس هناك شىء أكيد، إننى أرى من هنا أيها الملك شخصين غريبين قادمين نحو مدينتكم.

وسكت، ونظر ناحية باب المدينة لبرهة، واتجه الحضور الصامت نحو الباب، وعاد العراف إلى أصدافه. وبيد ماهرة جعلها تلعب داخل راحة كفه ثم ألقاها... وقال:

– يا ملك الماندينج، المستقبل يسير بخطى حثيثة، ستخرج بلاد الماندينج من الظلام وستتألق نيانيبا، فما هو هذا الضوء القادم من الشرق؟

– ورد نيانكومان دووا: أيها الصياد، كلامك غامض، سهل لنا التواصل مع كلامك، تحدث بلغة واضحة أي بلغة السافانا [٣] التي نعرفها.

– قال، لقد وصلت أيها الراوي، أنصتوا لرسالتي، أنصت أيها الملك.

"لقد حكمت هذه المملكة التي أورثها إياك أجدادك، ولا تطمح سوى في توريث هذه المملكة بتمامها وتوسعاتها لأبنائك، لكن وريثك الماغان الجميل لم يولد بعد.

"أرى صيادين قادمين نحو مدينتكم، إنهما آتيان من بعيد تصحبهما امرأة: آه، هذه المرأة! إنها دميمة ومنفرة فهي محدبة الظهر مما يشوهها، وعيناها جاحظتان تبدوان وقد ركبتا فوق وجهها، آه من سر الأسرار، فهذه المرأة أيها الملك يجب عليك أن تتزوج بها، لأنها ستكون أم ذلك الذي سيعيد اسم الماندينج الخالد إلى الأبد،

سيكون الطفل سابع نجم، "والفاتح السابع للأرض"، وسيكون أقوى من ذى القرنين.

لكن أيها الملك، وحتى يسوق القدر إليك هذه المرأة، لابد من تضحية: عليك بذبح ثور أحمر كأضحية، لأن الثور قوى البنية، فعندما تبلل دماؤه الأرض لن يجرؤ أحد أبدا على أن يقاوم مجىء امرأتك. وهكذا، لقد قلت ما يجب علىّ قوله، أن الأمر بين يدىّ الله تعالى.

جمع الصياد أصدافه ورتبها فى حقيبته وقال:

- "لست سوى عابر سبيل، يا ملك الماندينج، سأعود إلى السانجاران.. وداعا".

اختفى الصياد، ولم ينس كل من الملك نارى ماغان أو راويه نيانكومان دووا الأقوال النبوئية؛ فالعرافون ذوو بصر نافذ، وأقوالهم ليست دائما بصدد الحاضر؛ فالرجل متعجل والوقت طويل، ولكن لكل شىء أوانه.

وذات يوم كان الملك وحاشيته يجلسون كعادتهم تحت شجرة القابوق الكبيرة فى نيانيبا، يتجاذبون كعادتهم أطراف الحديث، وفجأة جذب أنظارهم غرباء يدلفون إلى المدينة، نظر الملك ورجال البلاط مندهشين.

وجدوا صيادين شابين وسيمين ولهما طلعة بهية، يسيران تسبقهما شابة، واتجها نحو بلاط الملك، وكان الرجلان يضعان سهاما من الفضة التى تومض على أكتافهم فالشاب الذى يبدو الأصغر سنا كان يمشى فى رباطة جأش السيد سيمبون Maitre Sïmbon. ولما وصل الغريبان على بعد خطوات من الملك، انحنيا تحية للملك، وتحدث الأكبر قائلا:

– "تحيى الملك ناريه ماغان كون فاتا وحاشيته، إننا قادمون من بلاد دو "Do"، لكن أخى وأنا ماندنكيان، نحن من قبيلة التراوريين. قادنا الصيد والمغامرة إلى بلاد "دو" البعيدة (٤) التى يحكمها الملك دو مانسا نيمو ديارا Do Mansa Gnemo Diarra اسمى أولمبا Oulamba، وأخى أولانى Oulani، والشابة من بلاد "دو"، أتينا بها كهدية للملك لأن أخى وأنا إرتأينا أنها جديرة بزوجة ملك.

حاول الملك وحاشيته عبثا أن يتفرسوا فى وجه الفتاة، فقد ظلت جاثية على ركبتيها، مطأطأة الرأس، وعمدت إلى ترك وشاحها يتدلى أمام وجهها، فإذا كانت الفتاة قد استطاعت إخفاء وجهها، فلن تستطيع إخفاء التحدب الذى يشوه ظهرها وأكتافها، كانت قبيحة الوجه، ذات دمامة شديدة، تُشاهد أذرعها ذات العضلات، وثدييها المنتفخين، اللذين يدفعان بشدة مئزرها القطنى المتين المعقود تحت إبطها تماما. تأملها الملك لبرهة. وأشاح ماغان الوسيم برأسه، ورمق طويلا نيانكومان دووا ثم أطرق الرأس. فهم الراوى حيرة الملك.

- وقال: "أنتم ضيوف الملك. أيها الصيادان نتمنى لكما السلام فى نيانيبا، وكل أبناء الماندينج ليسوا سوى شخص واحد. هيا تفضلا بالجلوس.. ارويا ظمأكما، وقُصا على الملك؛ على إثر أية مغامرة غادرتما بلاد "دو" مع هذه الشابة.

وافق الملك بإيماءة من رأسه، ونظر الأخوان لبعضهما البعض، وبإشارة من الأكبر، تقدم الأخ الأصغر نحو الملك. ووضع على الأرض قنينة الماء البارد، التى كان قد أحضرها لهما أحد الخدم.

وقال الصياد: "سافرنا أخى وأنا من القرية للصيد، وذلك بعد مواسم الحصاد الكبيرة(٥) وقادنا تعقب الفريسة إلى أطراف بلاد "دو"، قابلنا صيادين، أحدهما جريح، وعلمنا منهما أن عجلا غريب الأطوار يزعج قرى "دو"، ويسبب ضحايا كل يوم، ولا يجرؤ أحد على الخروج من القرى بعد مغيب الشمس. وكان الملك "دو مانسا نيمو ديارا" قد وعد الصياد الذى يقتل العجل بأفضل جائزة. وقررنا أن نغامر، ولذا عبرنا إلى بلاد "دو" وبعين ساهرة تسللنا بحذر وتقدمنا، وعند شاطئ نهر، رمقنا سيدة مسنة، كانت تبكى، وتنتحب، وتتضور جوعا، ولم يحرص أى عابر بالتوقف عندها. لقد استحلفتنا بالله أن نطعمها، اقتربت منها متأثرا بدموعها، وأخرجت من حقيبتى بعض قطع القديد، وحينما شبعت قالت:

- "أيها الصياد، أخلف الله عليك على قدر مساعدتى".

وحينما تهيأنا للرحيل، استوقفتنى.

- وقالت: "أعرف أنكما ستحاولان أن تجربا حظكما للقضاء على عجل "دو"، لكن اعلما بأن الكثيرين قبلكما قد لقوا حتفهم فى مغامرتهم، لأن نصالهم كانت واهنة قاومها العجل. أيها الصياد الشاب، إنك شجاع، وأنت من سينتصر على العجل.. فأنا العجل الذى تبحث عنه. لقد غلبتنى كرمك، أنا العجل الذى روّع "دو".. لقد قتلت مائة وسبعة من الصيادين.. وأصبت سبعا وسبعين.. وكل يوم أقتل أحد سكان بلاد "دو"، ولا يدرى الملك نيمو ديارا إلى أى من الجن يقدم أضحياته.

هاك أيها الشاب، خذ هذا المغزل، خذ البيضة هذه، واذهب إلى سهل أورانتامبا Ourantamba حيث أرعى محاصيل الملك، وقبل أن تستعمل قوسك، ستصوب علىّ ثلاث مرات بهذا المغزل، بعدها سأكون عرضة للإصابة، سأسقط، سأنهض، سأتعقبك إلى السهل المجدب، ستُلقى خلفك البيضة هذه، سيولد مستنقع كبير من الماء، ولن أتمكن من التقدم، وأنت عندئذ ستجهز علىّ.

وكدليل على انتصارك، ستقطع ذيل العجل وهو من الذهب، وتقدمه للملك وتطالب بالمكافأة التى تستحقها.

أما أنا فقد أديت ما علىّ، وعاقبت أخى ملك بلاد "دو" الذى حرمنى من نصيبى فى الإرث.

أمسكت بالمغزل والبيضة وأنا أطير فرحا، فاستوقفتنى العجوز بإيماءة منها قائلة:

- أيها الصياد: هناك شرط واحد.

- قلت بتلهف: ما هو؟

- قالت إن الملك كان قد وعد بأن يزوج الفائز من أجمل بنات "دو"، فحينما يتجمع شعب "دو"، ويطلبون منك اختيار من تريدها زوجة لك، ستبحث فى الجمع المحتشد، ستجد شابة صغيرة قبيحة، أكثر دمامة تجلس بعيدا إلى شرفة، إنها دميمة إلى الدرجة التى لا يمكن أن تتخيلها، وهى التى يتوجب عليك اختيارها، ويسمونها "سوجولون كيجو الدميمة" أو كودوتو لأنها مقوسة الظهر ستختارها.. إنها قرينى ستصبح امرأة فائقة إذا ما تملكتها، أعطنى وعدا بأن تختارها أيها الصياد. أقسمت على ذلك بين يدى المرأة العجوز واستأنفنا مسيرتنا.

كان سهل اورانتامبا على مسافة نصف يوم من هناك، وفى الطريق رأينا صيادين يهربون، وينظرون إلينا بذهول شديد. كان العجل على الطرف الآخر للسهل. وعندما رمقنا، انقض علينا وقرونه متحفزة وقمت بعمل ما قالت به العجوز، وقتلت العجل، وجدعت ذيله ورجعنا إلى مدينة "دو" وذلك مع دخول الليل [٦]، ولذا لم نمثل أمام الملك سوى فى الصباح. وأمر الملك بدق الطبول، وقبل

أن ينتصف النهار كان أهالى البلاد قد اجتمعوا فى الميدان الكبير، وقد وضع جسم العجل المجدوع فى وسط الميدان، وأخذ الجمهور المهتاج يلعنه ويسبه، بينما يتغنون بأسمائنا بشكل متكرر، وحينما ظهر الملك، أطبق صمت عميق على الجمهور.

– قال الملك: لقد وعدت بتزويج أجمل جميلات بنات بلاد "دو" إلى الصياد الشجاع الذى خلصنا من الآفة التى داهمتنا. لقد مات عجل "دو" وإليكم الصياد الذى قتله. إننى أفى بوعدى أيها الصياد، هؤلاء هن بنات "دو"، اختر ما تراه".

وافق الجمهور بإطلاق صيحة عالية. كانت بنات "دو" يرتدين ملابس العيد طوال اليوم، والذهب يصدر بريقه من شعورهن، وكانت معاصمهن الضعيفة تعانى من ثقل الأساور الفضية، فلم يجتمع مثل هذا الجمال فى ساحة قط، مررت بزهو وأنا أحمل أمام جميلات "دو" جعبتى فوق ظهرى اللاتى كن يضحكن لى وأسنانهن البيضاء مثل أرز بلاد الماندينج، لكننى تذكرت كلام المرأة العجوز، وقمت بعمل عدة دورات داخل الدائرة الكبيرة بينهن وأخيرا رمقت عن بُعد سوجولون كيجو فى شرفة، فاخترقت الزحام، وأخذت بيد سوجولون وجذبتها إلى وسط الدائرة. وقدمتها للملك قائلا:

– أيها الملك "تيمو ديارا" هذه هى التى اخترتها من بين فتيات "دو"، إنها التى أريد أن تصبح امرأتى.

كان الاختيار غريبا، حتى إن الملك لم يستطع إخفاء الضحك، وساد الضحك، واستغرق الناس فى الضحك، واعتبرت مجنونا، وأصبحت بطلا شاذا وكان يتردد بين الحشد "يجب أن تكون من قبيلة التراوريه كى تتصرف بهذا الشكل" (٧).

هكذا غادرنا أخى وأنا "دو" فى نفس اليوم تحت سخرية الكونديين "Kondé". أراد ماغان الجميل، أو الملك ناريه أن يحتفل بزواجه بكل الإجراءات المعتادة، وذلك حتى لا يجادل أحد فى حقوق الابن الذى سيولد.

فقد اعتبر الصيادان بمثابة والدى سوجولون، وإليهما قدم نيانكوبان دووا جوزة الكولا التقليدية، وحدد يوم الأربعاء الأول للقمر الجديد يومًا للزواج وذلك بالاتفاق مع الصيادين، وأخذت القرى الاثنتا عشرة لبلاد الماندينج القديمة وكل الشعوب الصديقة علما بذلك، وتوافدت الوفود من كل صوب وحدب فى التاريخ المختار إلى نيانى، أى مدينة ماغان كون فاتا.

وكانت سوجولون قد أقامت لدى إحدى عمات الملك من العجائز، ولم تخرج قط منذ وصولها إلى نيانى، وكل الناس يرغبون فى رؤية المرأة التى يجهز لها ناريه ماغان حفل الزواج الفخيم هذا، وهم يعلمون أنها ليست جميلة، واستيقظ حب الاستطلاع لدى الناس، حيث كانت قد راجت آلاف النكات، وكان أغلبها من ساسوما بيرتيه Sassouma Bérété الزوجة الأولى للملك.

وعند الفجر أعلنت الطبول الملكية عن الحفل، واستيقظت المدينة على صوت التام تام(*) (جيمبى) Djembe التى تجاوب معها الناس من حى لحى، وعلت أصوات الرواة فى أوساط الجموع الشعبية، ينشدون قصائد المديح للملك ناريه ماغان، ولدى عمة الملك العجوز، كانت ماشطة نيانى تقوم بتزيين شعر سوجولون كيجو، التى كانت قد افترشت الحصير، ووضعت رأسها على ساقى الماشطة، تبكى فى هدوء، وطبقا للتقاليد فقد حضرت أخوات الملك للمزاح معها.

– وقالت إحداهن: هذا آخر يوم من الحرية، فمن الآن ستكونين امرأتنا.

وأضافت أخرى: عليك أن تودعى شبابك.

– وأضافت ثالثة: لن ترقصى فى الميدان، ولن تثيرى إعجاب الصبية، لقد ولّت الحرية يا حلوتى.

لم ترد سوجولون بكلمة.. وكانت الماشطة تقول من آن لآخر:

– هيا كُفى عن البكاء ستبدأ حياة أخرى، أنت تعرفين، ستكون حياة أجمل مما تتصورين، ستكونين أما، وستتمتعين بالفرح حين تكونين ملكة وسط أبنائك، هيا ابنتى، لا تبالى بالأقوال السيئة لإخوة

(*) التـام تـام Tam Tam: تعـرف محليـا بطبلـة جيمبـى Djembe (المترجمة).

زوجك، وكانت راويات الأميرات من النساء يتغنين وينشدن باسم الزوجة الشابة وذلك أمام الدار.

وهناك كان الفرح قد بلغ ذروته فى محيط الملك، واستحضرت كل قرية فرقة من الراقصين والموسيقيين، وكبار السن يقدمون الأضحيات فى وسط الجمع، ويقوم الخدم بعمليات التقطيع، بينما يقف على أغصان شجرة القابوق الكبيرة كواسر كبيرة تتابع بأعينها هذه المجزرة.

كان الملك ناريه ماغان يجلس أمام قصره فى وسط حاشيته يستمعون إلى موسيقى "البولون" Bolon، بينما كان دووا يقف بين كبار القوم ممسكا بيده رمحه الكبير، يغنى لحن ملوك الماندينج، والغناء والرقص يدور فى كل القرى، وكان أعضاء الأسرة الملكية يؤدون واجبهم نحو العرس ويعبرون عن فرحتهم بتوزيع الحبوب والملابس بل والذهب، حتى الغيورة ساسوما بيريتيه اشتركت أيضا فى هذه الحفاوة، بتوزيع الملابس الجميلة على الراويات.

وكان قد حل الظلام، وتوارت الشمس خلف الجبل، وحلت ساعة الإعداد لموكب الزفاف أمام دار عمة الملك، وهنا سكتت التام-تام، وكانت النساء العجائز أقارب الملك قد قمن بتحميم سوجولون وتعطيرها، وألبسنها الملابس البيضاء، ووضعن شالا على رأسها.

سارت سوجولون فى المقدمة، محفوفة بعجوزتين، وتبعها أقارب الملك وخلفهم جوقة بنات نيانى الشابات وهن ينشدن أغانى

العروس، وكن ينظمن إيقاع أغانيهن بالضرب بالأيدى، وتراص الفلاحون والمدعوون فى صفوف فى الفضاء ما بين منزل العمة والقصر ليروا موكب الزفاف. وحين بلغت سوجولون بهو الملك رفعها شاب من إخوته بقوة من على الأرض، وأخذ يجرى بها نحو القصر، بينما تعلو أصوات الجمهور بالصياح.

ورقصت النساء طويلا أمام قصر الملك. وبعد بعض المجاملات من أعضاء الأسرة الملكية، تفرق الجمهور بينما كان الليل فى نزعه الأخير.

* * *

"ستكون امرأة فائقة إذا وصلت إلى امتلاكها" تلك كانت أقوال امرأة "دو" العجوز، إلا أن قاهر العجل لم يستطع أن ينتصر على الشابة، وهكذا فقط وبعد هذه الصدمة فكر الصيادان أولانى وأولامبا فى إعطاء سوجولون إلى ملك الماندينج.

وعليه أراد الملك ناريه ماغان أن يكمل واجبه كزوج فى الليل، إلا أن سوجولون دفعت هجمات الملك، وألح وصمم هذا الأخير، إلا أن جهوده ذهبت هباء وفى الصباح الباكر وجد دووا الملك فى حالة سيئة كمن عانى من هزيمة ثقيلة فسأله:

– ماذا بك يا مليكى؟

– أجاب الملك: لم أستطع أن أتملكها، لقد أخافتنى هذه الشابة، حتى إننى أشك أنها مخلوق بشرى، كنت كلما اقتربت منها بالليل،

كان جسمها يغطى بوبر طويل، وهو ما سبب لى رعبا شديدا! وكنت أدعو قرينى طوال الليل لكنه لم يستطع أن يخضع قرين سوجولون.

ولم يظهر الملك طوال اليوم، بل كان "دووا" هو الشخص الوحيد الذى يمكنه الدخول والخروج من وإلى القصر، وبدت العاصمة نيانى وقد وقعت فى الحيرة، وهرعت النساء العجائز منذ البكور يبحثن عن بكارة العروس، ولكنهن طردن سرا، واستمر الحال هكذا أسبوعا..

وكان الملك ناريه ماغان قد طلب المشورة من بعض كبار "العرافين"، إلا أن كل الطرق عجزت عن إخضاع قرين سوجولون.

وذات مساء، والجميع يستغرقون فى النوم، استيقظ ناريه ماغان وأنزل حقيبته الجلدية من على الحائط، وجلس فى وسط الدار، وبعثر الرمل الذى كان بداخل الحقيبة على الأرض. وبدأ الملك فى رسم علامات غامضة على الرمل، يرسم، ويمحو، ويعيد الرسم. استيقظت سوجولون، كانت تعرف أن الرمل يتكلم، بل كانت شديدة الحيرة من رؤية الملك متيقظا فى جوف الليل.

توقف الملك ناريه ماغان عن رسم الإشارات، ووضع يده تحت ذقنه يفكر مليا فى معانى الإشارات، وقام فجأة. وانقض على سيفه المعلق فوق سريره وقال:

يا سوجولون يا سوجولون.. قومى.. أيقظنى من منامى حلم، ظهر لى الجن حامى ملوك الماندينج.. أننى أسأت فهم كلام الصياد الذى قادك إلىّ، لقد كشف لى الجن عن المعنى الحقيقى. يا سوجولون علىّ أن أضحى بك قدر منزلى، يتوجب أن يسيل دم عذراء من قبيلة كونديه. وأنت العذراء الكوندية التى ساقك القدر إلى منزلى.

– معذرة، علىّ أن أكمل مهمتى، سامحى اليد التى ستبعثر دمك.

– قالت: لا، لا، لماذا أنا؟ لا أريد الموت.

– قال الملك: لا فائدة.. لستُ أنا من قرر ذلك.

وبيد من حديد أمسك الملك شعر سوجولون، فسيطر الرعب عليها حتى غابت عن الوعى، أغمى عليها، وتصلب جسدها الإنسانى، فلم يكن قرينها بداخلها فلما أفاقت كانت قد صارت امرأة.

وحبلت سوجولون.. فى تلك الليلة.

الهوامش:

(١) تعترف كل الأدبيات أن قرية نيانى الصغيرة، كانت أول عاصمة للماندينج، وكانت مقر الملوك الأوائل، ويقال إن سونچاتا جعل منها مدينة كبيرة، كما كانت تُسمى أيضا نيانيبا أى نيانى الكبيرة، إنها اليوم قرية صغيرة تضم بضع مئات من السكان وتقع على السانكارانى على بعد كيلو متر من حدود السودان(*).

وفى الأغانى لسونچاتا، تحمل المدينة أيضا اسم نيانى- نيانى وهى تسمية للتفخيم (انظر دبلومتى فى الدراسات العليا).

(٢) Sassa- هى حقيبة الصياد، وهى نوع من القربة، ويمكن أن نميز منها عدة أنواع، وعموما يحمل الصيادون حقيبة صغيرة من أجل أحرازهم اللصيقة بهم.

(٣) اللغة الواضحة غاية الوضوح هى المالينكيه Malinké، فأبناء المالينكية لغتهم واضحة كبلدهم، والتى يحبون دائما أن يضعوها فى تناقض مع الغابة أى البلاد المظلمة.

(٤) دو "Do" يبدو أن بلاد دو هى بلاد سيجو Ségou الحالية، وتتحدث الروايات عن "دو" كبلد فى غاية القوة. وفى العصور

(*) مالى حاليا (المترجمة).

الحديثة ألحقت دو ببلاد كيرى Kiri ويقال كذلك "دوو كرى Do ni Kri"، والمقصود هى بلاد العشرة آلاف بندقية وذلك حسب الروايات، وهذه قصيدة تمجد بلاد دو وترجمتها هى:

أنها بلاد المدن العشرة

حيث يحكم ما نسا أومالية كونديه

الجوهرة الثمينة من الجنّة

"دو" "وكرى"

أرض البنادق ديارا

"دو" "وكرى"

(٥) فى غينيا العليا (ماندينج). يتم الحصاد الوفير للأرز فى شهرى نوفمبر- ديسمبر، فالشباب الذين تحرروا بعد هذه الأشغال الضخمة، يسافرون من القرى سواء للبحث عن قليل من الثروة. أو لمجرد تذوق طعم السفر، وهم عادة ما يعودون قبل موسم الأمطار الغزيرة خلال مايو- يونيو.

(٦) هى أسطورة التراوريه الديوباتيه Traoré el Dioubaté وطبقا للتراث فإنه عند موت العجل حدثت فرقة بين التراورية الديوباتيه. وكان الشقيقان أولانى وأولامبا من التراوريه، فلما قتل الأخ الأصغر العجل، ألفّ أخوه الأكبر- فى التو- أغنية للمنتصر قال فيها: "أخى، إذا كنت راويًا فلن يقاومك أحد؟ وهى

تقال بالمالينكيه "Koro Toun Baké Djéli à Dian bagaté"
وصار التعبير Dian- Baga- te هو، "Diabaté" وبالتحريف
صار Dioubaté ولهذا فالرواة الديوباتيه هم أشقاء للتراوريه.

(٧) تراوريه وكونديه – يسخر الناس فى "دو" من الصيادين اللذين فضلا الدميمة سوجولون على الفتيات الحسناوات؛ ومنذ ذلك الوقت فإن كونديه وتراوريه صارا ساناخو "Sanakhou" أى أبناء عمومة فى الدعابة أو المزاح.

الطفل الأسد

تطبعت المرأة سريعا، فالآن تتنزه سوجولون كيجو فى حرم القصر الملكى الفسيح دون حرج، وسرعان ما اعتاد سكان القصر على دمامتها. غير أن ساسوما بيرتيه، الزوجة الأولى للملك أظهرت عدم احتمالها ذلك. فهى لا تستقر فى مكانها أبدًا، وتتألم عندما ترى الدميمة سوجولون تتنزه مزهوة بحملها فى القصر، وتتساءل عما سيصير إليه أمرها إذا ما حرم ابنها الذى يبلغ من العمر ثمانى سنوات من الإرث لمصلحة الطفل الذى ستضعه سوجولون. انصب اهتمام الملك على الأم القادمة، وعند عودته من الحروب يوفر لها أعظم نصيب من الغنائم. من ملابس جميلة، وحلى نادرة.

وراحت مشروعات سوداوية تقفز إلى ساسوما بيرتيه: فهى تريد قتل سوجولون، واستدعت فى سرية تامة - أكبر سحرة الماندينج. لكنهم جميعا اعترفوا بعجزهم عن مواجهة سوجولون، وبالفعل، وعند الغسق، تأتى ثلاث بومات لتجلس على سطح دارها لتؤرقها.. لقد كلّت ساسوما من حربها وقالت فى نفسها:-

- إذن. سنرى. عندما يُولد هذا الطفل.

أكملت سوجولون عدتها، واستدعى الملك مُسنات الماندينج التسع إلى نيانى وبقين بجوار ابنة بلاد "دو". وذات يوم كان الملك

يجلس وسط حاشيته، حين قدم إليه من يعلنه بأن آلام الوضع داهمت سوجولون، فأخلي مجلسه من حاشيته عدا "تيانكومان دووا" الذى ظل إلى جواره. وكان يقال كأنها المرة الأولى التى يصير فيها أبا، لفرط ما كان الملك قلقا مضطربا. وخيم السكون التام على القصر. وحاول "دووا" بجيتاره وحيد الوتر أن يُسرّى عن صاحب الجلالة لكن بلا جدوى بل كان عليه إيقاف هذه الموسيقى التى أغاظت الملك. وفجأة أظلمت السماء وظهرت من الشرق سحب ضخمة حجبت قرص الشمس، رغم أنه كان وقت فصل الجفاف. بدأ الرعد يزمجر، وومضات برق سريعة تهتك الغمام، وبدأت الأمطار تسقط بقطرات غليظة، بينما تهب ريح مخيفة، وظهر وميض مصحوب بزمجرة شديدة من ناحية الشرق، أضاء السماء كلها، حتى وقت المغيب.

ثم توقف المطر، ولاحت الشمس! فى هذه اللحظة خرجت واحدة من المسنات من دار سوجولون! جرت نحو البهو وأخبرت ناريه ماغان أنه صار أبًا لطفل ذكر.

لم يحرك الملك ساكنا، بدا كالمخبول، ونهض دووا حين فهم انفعاله وأشار إلى اثنين من العبيد كانا لا يزالان يقفان بالقرب من الطبلة Tabala الملكية: وتسارعت دقات الطبل الملكى تعلن للماندينج ميلاد الابن، وردت عليها التام- تام فى القرى. وفى نفس اليوم كان كل شعب الماندينج قد علم بالنبأ السار. وتتابعت صيحات الفرح من جوف الصمت المطبق الذى كان سائدا، وتوافد على القصر أولئك

الذين يحملون "التام- تام" والطبل الصغيرة والموسيقيين فى نيانى. ومر الانفعال الأول للملك ونهض، ولدى خروجه من البهو قابله صوت نيانكومان دووا والذى قال بحرارة:

- أحييك أيها الأب أحييك أيها الملك ناريه ماغان، أحييك يا ماغان كون فاتا، أحييك يا فراكو ماغان كين Frako Maghan Keign، لقد ولد الطفل الذى ينتظره العالم. يا ماغان، يا أيها الأب السعيد، أحييك لقد ولد الطفل - الأسد، الطفل- العجل. لقد جعل الله العلى القدير الرعد يزمجر، والسماء أنارت والأرض ارتعدت، وذلك للإعلان عن مجيء الطفل للعالم أحييك أيها الأب، أحيّ الملك ناريه ماغان.

كان الرواة جميعهم هناك، وكانوا قد أعدوا ترتيلة للطفل الملكى. وأفاض الملوك من كرمهم على الرواة مما زاد من بلاغتهم: ووزع ماغان كون فاتا فى هذا اليوم عشرة مخازن من الأرز على الشعب، كما لوحظ سخاء ساسوما بريتيه الذى لم يخدع أحدا، فهى تتعذب سرا ولا تفصح عن ذلك.

ومنح المولود اسمه فى اليوم الثامن لولادته، وكان عيدا عظيما.. حيث أتى الناس من كل قرى الماندينج. وحمل كل شعب من الجيران الهدايا للملك. ومنذ الصباح، وأمام القصر، تشكلت دائرة كبيرة، تقف الخادمات فى وسطها يسحقن الأرز الأبيض ليَصنعن منه

الخبز، بينما تتمدد عجول الأضحية تحت ساق شجرة القابوق الضخمة.

أما داخل دار سوجولون، فقد نزعت عمة الملك الشعيرات الأولى للطفل، بينما قامت الراويات المذودات بمراوح ضخمة، بإنعاش الأم الممدة فى استرخاء على وسائد لينة ناعمة الملمس.

كان الملك فى بهوه، وخرج، يتبعه دووا، صمت الجمهور وصاح "دووا":

– سيطلق على طفل سوجولون اسم "ماغان"، وهو من اسم والده، ومارى جاتا وهو اسم لم يحمله أمير فى الماندينج، وسيكون ابن سوجولون أول من يحمل هذا الاسم.

وفى الحال تنادى الرواة باسم الطفل، وبدأت "التام– تام" تدق من جديد، وعادت عمة الملك التى كانت قد خرجت لسماع اسم الطفل، عادت إلى السكن وهمست بالاسم المزدوج فى أذن المولود الجديد وهو ماغان ومارى جاتا وذلك حتى يتذكرهما.

انتهى الاحتفال بتوزيع اللحم على رؤساء الأسر، وتفرق الحشد مسرورين، أما الأهل الأقربون فقد دخلوا واحدا تلو الآخر إلى دار الأم لإبداء الإعجاب بالمولود الجديد.

الطفولة

لله أسراره، التى لا يقدر على كشفها أحد. ستصبح ملكا، ليس فى وسعك شىء. ولن يسعك أن تفعل شيئا ستكون شقيا فكلٌ يمضى فى طريقه المرسوم، ولا يمكنه أن يغيره أبدًا.

كانت طفولة ابن سوجولون بطيئة متثاقلة وصعبة، كان لا يزال يحبو على أربع وهو فى سن الثالثة، بينما كان الأطفال فى نفس سنه سبقوه فى المشى، لم يكن يتمتع بأى قسط من جمال والده الأخاذ، والده ناريه ماغان. رأسه ضخم لدرجة يبدو فيها جسمه وقد عجز عن حملها. ذو عينين متورمتين يفتحهما عن آخرهما حين يدلف أحد إلى دار أمه. كان قليل الكلام، يقضى الطفل الملك طوال يومه جالسا وسط الدار، وعندما تخرج أمه، يحبو على أربع يفتش فى القنانى بحثا عن غذاء، فقد كان شرها بدرجة كبيرة [١] .

كانت الألسنة اللاذعة قد بدأت فى اللمز: أى طفل هذا ذى السنوات الثلاث ولم يخط خطواته الأولى؟ أى طفل هذا ذى السنوات الثلاث الذى يزعج والديه بسبب نزواته وتقلباته المزاجية؟ أى طفل هذا ذو السنوات الثلاث ولا يدخل السرور على أهله لحماقته فى الكلام؟ وهكذا كان ينادى على الطفل سوجولون جاتا بحيث يُسبق اسمه باسم أمه.

كان سوجولون جاتا مختلفا تماما عن أترابه في سنه، يتكلم قليلا، ولم تنبسط أسارير وجهه العابس قط عن ابتسامة، وكان يقال إنه يفكر، يزعجه كل ما يتسلى به الأطفال في سنه. وغالبا ما كانت سوجولون تأتي بهم على مقربة منه كي يرافقوه، إنهم يمشون. وكانت الأم تأمل أن جاتا حينما يرى زملاءه يسيرون على أرجلهم سيحاول أن يمشي مثلهم، لكن لم يحدث شيء، زد على ذلك أنه كان ينهال بالضرب بكلتا يديه القويتين على الأطفال المساكين، لذا لم يكن أحد يبغي الاقتراب منه.

كانت الزوجة الأولى للملك هي الأولى في شماتتها بإعاقة سوجولون جاتا، حيث بلغ ابنها دانكاران تومان الحادية عشرة.. كان صبيا جميلا، حيويا، يقضي اليوم في الجري في القرى مع أترابه، بل كان قد بدأ مبادرته في الدغل حيث كان الملك قد أمر بأن يصنع له قوسا. وذهب خارج المدينة يمارس عملية الرماية مع أقرانه. كانت ساسوما سعيدة وتحتقر سوجولون لأن ابنها لا يزال يحبو أرضا، ولما كانت هذه الأخيرة تمر بمنزلها كانت تصيح:

– تعالَ.. أيها الابن.. امش.. اقفز، أسرع، فالجن لن يصنعوا لك الخوارق. إنني أفضل ابنا يسير على ساقيه، من أسد يحبو على الأرض! هكذا كانت تتحدث. أما إذا مرت سوجولون أمام بابها فتكون هناك إيماءات صريحة ثم تنفجر ضاحكة وبهذا الضحك الشيطاني تعرف امرأة غيورة كيف تتلاعب به جيدا.

لقد أثقل عليها عجز ابنها، لقد استعملت سوجولون كيجو غاية موهبتها فى السحر لكى تمنح القوة لساقى ابنها، وكذا الأعشاب الأكثر ندرة لم تكن تؤتى فائدة. حتى أصاب اليأس الملك نفسه.

ولما كان الملك قد نفد صبره انفصل رويدا رويدا وكف عن النظر فى الأمر، واستمر نيانكومان دووا فى تذكير الملك بكلام الصياد وحبلت سوجولون من جديد، استبشر الملك أن تنجب له ابنا.. لكنها وضعت بنتا، ومنحوها اسم كولونكان Kolonkan، كانت شبيهة بأمها، لم تحظ بشىء من جمال أبيها.

إن الملك الذى فترت همته، منع سوجولون من الذهاب لمنزله. وعاشت لبعض الوقت شبه مغضوب عليها. وتزوج ناريه ماجان من ابنة أحد حلفائه هو ملك الكامارا Kamara وكانت تدعى نامانجيه Namandjé، ذات جمال أسطورى، وضعت طفلا بعد عام. واستشار الملك العرافين حول مصير هذا الطفل، وأجابوه بأن ابن نامانجيه سيكون الذراع الأيمن لملك قوى، وخلع الملك على المولود الجديد اسم بوكارى Boukari، ونودى عليه بعد ذلك بماندينج بوكارى أو ماندينج بورى Manding Bory.

وقع ناريه ماجان فى حيرة كبيرة، ترى هل طفل سوجولون الكسيح هو ذاك الذى أعلن عنه الصياد العراف؟

- قال نيانكومان دووا: إن لله العلى القدير أسراره، مضيفا من قول الصياد العراف: "إن شجرة القابوق تخرج من حبة صغيرة".

وذات يوم ذهب الملك ناريه ماغان إلى نون فيارى Noun Faïri الحداد، العراف فى نيانى، كان كهلا أعمى، استقبل الملك فى بهوه الذى كان يستعمله كورشة، وأجاب عن سؤال الملك:

– عندما تنبت الحبة، لا يصير نموها دائما سهلا، فالأشجار الكبيرة تنمو ببطء، لكنها تضرب بجذورها بعمق فى الأرض.

– وتساءل الملك: هل نبتت البذرة بالفعل؟

– أجاب الحداد العراف الأعمى مؤكدا أن النمو لم يصر سريعا بعد كما ترغب آه!! يا له من رجلٍ قد نفد صبره!!

هذه المقابلة، وكذلك ثقة دووا فى مستقبل ابن سوجولون، قدمتا للملك الأمان. ورغم الحزن العميق لساسوما بيريتيه، أعاد الملك سوجولون إلى حظيته، وسرعان ما ولدت بنتا ثانية وأطلق الملك عليها اسم جامارو. غير أن نيانى العاصمة ظلت لا تتحدث سوى عن الابن الكسيح لسوجولون. إنه الآن فى السابعة من عمره ولا يزال يحبو على الأرض لكى ينتقل من مكان لآخر، وعلى الرغم من تعلق الملك بسوجولون فإنها كانت فى حال من اليأس.

لقد صار الملك ناريه ماغان كهلا وأحس أن أجله قد دنا، وصار دانكاران تومان ابن ساسوما الآن فتى جميلا.

وذات يوم استدعى الملك ناريه ماغان، مارى جاتا، وتحدث إلى الطفل كمن يتحدث مع شخص كبير قائلا له: يا مارى جاتا لقد

كبرت سنا وأُوشك ألاّ أكون بينكم، لكن قبل أن يخطفنى الموت أردت أن أقدم لك الجائزة التى يقدمها كل ملك لمن يخلفه. فى بلاد الماندينج لكل أمير راوٍ. فأب دووا كان راوى أبى، ودووا هو الراوى الخاص بى، وابن دووا بلاّ فاسيكيه Balla Fasséké سيكون راويك. كونا منذ الآن صديقين لا تفترقان: فمن فمه ستتعلم تاريخ أجدادك. ستتعلم منه فن حكم بلاد الماندينج حسب المبادئ التى أورثها لنا أجدادنا، لقد أديت واجبى، أديت كل ما يجب على ملك الماندينج أداؤه. سأسلمك مملكة مترامية الأطراف وسأترك لك حلفاء ثُقاة، وهكذا يكتمل مصيرك. لكن لا تنس أبدًا أن نيانى هى عاصمتك وأن أرض الماندينج هى مهد أجدادك.

أما الطفل الذى بدا أنه فهم كل معانى كلام الملك فقد أشار إلى بلاّ فاسيكيه بالاقتراب وجهز له مكانا فوق جلد العجل حيث كان يجلس وقال:

– يا بلاّ.. ستكون راوي!

– أجاب بلاّ، نعم يا ابن سوجولون.. إن شاء الله.

وتبادل الملك ودووا النظرات حيث لمعت الثقة فى العيون.

الهوامش:

(١) كانت شراهته أسطورية أيضا، ويربط البعض هنا هذا باسمه: صون جاتا Soun- Djata (Son= حرامى أو لص، Djata= أسد) ويقال إنه كان يغير على كل دار.

وفى رواية أخرى (وهو ما أوافق عليه) فإن اسم سونچاتا يأتى من الإدغام بين اسم الأم سوجولون الموضوع أمام اسم الابن (جاتا) وهى ممارسة قائمة لدى المالينكيه، وهو ما ينتج عنه سوجولون جاتا- سو- أن- جاتا. والنطق الصحيح هو سونچاتا وذلك فى بلاد المالينكيه.

صحوة الأسد

بعد هذا اللقاء الذى تم بين ناريه ماغان وابنه، قضى الملك نحبه، ولم يكن ابن سوجولون قد بلغ من العمر سوى سبع سنوات. اجتمع مجلس الكبار فى قصر الملك، ودافع دووا Doua دفاعا مجيدا عن وصية الملك، الذى احتفظ بالعرش لمارى جاتا. ولم يُعر المجلس أى اعتبار لرغبة ناريه ماغان هذه وساعدت مكائد ساسوما بيرتيه، فى إعلان ابنها دانكاران تومان ملكا على البلاد. وتم تشكيل مجلس للحكم حيث كانت فيه الملكة الأم فى عنفوان جبروتها. ومات دووا بعد ذلك بوقت قصير.

ولما كانت ذاكرة الناس ضعيفة، فلم يكن يجرى الحديث عن ابن سوجولون سوى بالاحتقار والسخرية: وكان يقال إنهم رأوا ملوكا عورا، وملوكا كُتعا، وملوكا عُرجا، لكن ملوكا بسيقان كسيحة فهو الأمر الذى لم يُسمع به قط. وأيا كانت عظمة المستقبل الذى يتنبأ به لمارى جاتا، فالعرش لا يمكن أن يعتليه عاجز الساقين، وإذا كانت الجن تحبه، فلتبدأ بأن تمنحه القدرة على استخدام ساقيه!

كانت تلك هى الثرثرات التى تسمعها سوجولون دائما. وكانت الملكة الأم ساسوما بيرتيه هى مصدر هذا الكلام.

وكانت ساسوما بيريتيه التى صارت ذات النفوذ القوى، تضطهد سوجولون، التى كان المرحوم ناريه ماغان يفضلها عليها،

فنفتها وابنها فى فناء خلفى للقصر. لقد أصبحت أم مارى جاتا تسكن الآن دارا قديمة كانت ساسوما تستعملها كدار للمخلفات من قبل.

لقد فتحت الملكة الأم الشريرة الباب على مصراعيه لكل الفضوليين، الذين أتوا لرؤية الطفل ذى السبعة أعوام، ولا يزال يحبو على الأرض. وكاد يتقاطر كل سكان نيانى العاصمة على القصر لهذا الغرض، بينما سوجولون المسكينة تبكى وهى ترى نفسها أضحوكة للعامة. واتخذ مارى جاتا- أمام جمهور المتطفلين مظهرا عنيفا. ولم تجد سوجولون عزاء لها سوى حب ابنتها الأولى كولوكان والتى كانت تمشى وهى ذات أربعة أعوام. وبدا أنها فهمت كل مصائب أمها، ولذا كانت تساعدها فى الأعمال المنزلية، وأحيانا كانت ترعى أختها جامارو التى لا تزال صغيرة، حينما كانت أمها سوجولون تتفرغ لأعمالها.

عاشت سوجولون وأطفالها على بقايا الملكة الأم، وركنت إلى حديقة صغيرة خلف القرية كانت تقضى فيها معظم أوقاتها، تعتنى بأبصالها ومزروعاتها. وذات يوم أحست بحاجتها إلى الخردل والتوابل فذهبت للملكة الأم تلح فى طلب بضعة أوراق من الباوباب.

- وأجابتها ساسوما الشريرة هاك.. لدى ما يملأ الإناء، اخدمى نفسك أيتها المرأة المسكينة! أما أنا، فابنى فى سن السابعة كان قد عرف المشى، وهو الذى يذهب ليجمع لى أوراق الباوباب..

خذى أيتها الأم الشقية، فابنك لا يطاول ابنى! ثم ضحكت هازئة، ذلك الهزء القاسى الذى يعبر منك اللحم ليخترق العظم.

فى هذا الموقف صارت سوجولون وقد أضناها الألم. لم تكن تعتقد قط أن الحقد يمكن أن يكون بهذه القوة لدى كائن بشرى. وخرجت من عند ساسوما وفى حلقها غصة، وكان مارى جاتا يجلس أمام دارها، على ساقيه العاجزتين، يأكل بهدوء من الوعاء. انفجرت سوجولون منتحبة، فلم تعد تقوى على أن تتمالك، وأمسكت بقطعة من الخشب وضربت ابنها قائلة:

– يا ابن الشقاء. ألن تسير قط! لقد كابدت وتحملت أكبر إهانة فى حياتى بذنبك، ماذا فعلت يا إلهى لتعاقبنى بهذا الشكل؟

أمسك مارى جاتا بقطعة الخشب وقال وهو يتطلع إلى أمه:

– أمى، ماذا حدث؟

– قالت صه، فلا يمكن لأحد أن يثأر لإهانتى.

– قال: ماذا حدث؟

– ردت الأم: لقد أذلتنى ساسوما بسبب أوراق نبات الباوباب.. فقد كان ابنها يمشى وهو فى سنك، وكان يحضر لأمه أوراق الباوباب.

– أجاب مارى جاتا: خففى عنك ألمك يا أمى.. خففى ألمك.

- أجابت سوجولون: لا.. هذا أثقل مما احتمل.

- قال ماري جاتا: سأمشي اليوم.. اذهبي وقولي إلى الحدادين الذين كان أبي يعرفهم أن يصنعوا لي عصاة من الحديد على أن تكون ثقيلة قدر الإمكان. أتبغين، أمي أوراقا من الباوباب فقط أم تريدين أن أحضر لك الشجرة كلها هنا؟

- أجابت آه يا ولدي! أريد منك - حتى تغسل عني هذا العار- أن تحضر لي الشجرة بجذورها هنا تحت قدمي أمام داري.

جري بلآفاسيكيه الذي كان هناك، نحو صاحب مسابك الحديد فاراكورو Farakourou وطلب منه عصا من الحديد. كانت سوجولون تجلس أمام دارها تبكي بهدوء، واضعة رأسها بين كفّيها وكان ماري جاتا قد عاد إلى وعائه وما به من أرز وبدأ يأكل كأن شيئا لم يحدث، وكان يرمق أمه من آن لآخر بنظرة عطوفة، وهي التي كانت تهمس بصوت خفيض، قائلة: "أريد الشجرة كاملة، أمام داري، الشجرة كلها"!

وفجأة دوّت ضحكة عالية خلف الدار، إنها ساسوما الشريرة التي كانت تقص مشهد الإذلال لإحدى خادماتها، وضحكت ضحكة عالية كي تسمعها سوجولون.

توارت سوجولون في الدار، وأخفت وجهها تحت الأغطية حتى لا تقع عيناها على هذا الابن العاجز" المستغرق في الأكل أكثر

من أى شىء آخر. ظلت سوجولون تنتحب وهى تخفى رأسها تحت الأغطية، وجسمها ينتفض بعصبية. وجاءت ابنتها سوجولون جاما رو للجلوس إلى جوارها قائلة لها:

- أمى، أمى، لا تبكى.. ماذا يبكيك؟

كان مارى جاتا قد انتهى من الأكل، وجاء حابيا على ساقيه، ليجلس إلى جدار الدار، فقد صارت الشمس حارقة، فى أى شىء كان يفكر؟ إنه وحده من يعرف.

كان أصحاب المسابك الملكية موجودين خارج أسوار المدينة. كان يعمل هناك أكثر من مائة حداد، ومن هناك كانت تخرج السهام والنبال والأقواس وأدوات المحاربين فى نيانى.

وحين طلب بلاّفاسيكيه صنع عصى حديدية قال له فاراكورو:

- إذن.. هل أتى اليوم العظيم؟

- رد بلاّفاسيكيه / نعم.. اليوم هو يوم شبيه بالأيام الأخرى لكن سيشهد ما لم يشهده يوم آخر.

كان صاحب المسابك فاراكورو هو ابن نونفيارى العجوز وكان عرافا مثل أبيه، وفى ورشته قضيب ضخم من قضبان الحديد التى صنعها والده نون فيارى وكان الناس يتساءلون فيم يستعمل هذا القضيب، ونادى فاراكورو على ستة من مساعديه وطالبهم بأن يحملوا القضيب إلى دار سوجولون.

وحينما وضع الحدادون قضيب الحديد الضخم أمام الدار، أحدث دويا مخيفا أيقظ سوجولون فزعة حيث كانت نائمة، وقال بلاّفاسيكيه ابن نيانكومان دووا:

– هذا هو اليوم العظيم، إننى أتكلم إليك يا مارى جاتا، يا ماغان يا ابن سوجولون! إن مياه نهر جوليبا يمكنها أن تزيل دنس الجسد، لكنها لا يمكنها أن تغسل العار. انهض أيها الأسد الصغير، ازأر حتى تعرف الأدغال أن لديها سيدا من الآن!

كان هناك أيضا مساعدو الحدادين. وكانت سوجولون قد خرجت أيضا. نظر الناس جميعا إلى مارى جاتا، الذى زحف على أربع، واقترب من قضيب الحديد، ثم ارتكز على ركبتيه ويد واحدة، وباليد الأخرى رفع دون عناء قضيب الحديد وركزه رأسيا، وكان ما زال جاثيا على ركبتيه، وأمسك بالقضيب بكلتا يديه. لقد خيم صمت القبور على الحضور، أغمض سوجولون جاتا عينيه وتشبث بالقضيب، لقد تصلبت عضلات ذراعيه، وبضربة قوية ثبت قدميه وانفصلت ركبتاه عن الأرض. كانت سوجولون كيجو مشدودة، تنظر إلى ساقى ابنها اللتين كانتا ترتعشان كأنهما تحت شحنة كهربية، أما جاتا فكان يتصبب عرقا حتى سال العرق على جبينه، وبجهد فائق استرخى، وبضربة واحدة كان يقف على ساقيه، إلا أن قضيب الحديد الضخم كان قد عُقف واتخذ شكل القوس.

وهنا أنشد بلاّفاسيكيه لحنا للقوس بصوت قوى:

"خد قوسك يا سيمبون"

خد قوسك واذهب

خد قوسك يا سوجولون جاتا"

وحينما رأت سوجولون ابنها واقفا، ظلت صامتة لبرهة ثم فجأة وجهت شكرها لله الذى منح ابنها استعمال رجليه قائلة:

"أى يوم هذا! إنه ليوم بهيج!

اليوم، يوم الفرح

يا الله العلى القدير

لم تمنحنى شيئا أفضل من هذا،

إذن فسوف يمشى ابنى

وقف مارى جاتا. وكأنه فى هيئة جندى يخلد للراحة، مستندا إلى قضيبه الضخم يتصبب عرقا بحبات غليظة. لقد استنفرت أغنية بلاّفاسيكيه القصر كله، وهرع الناس من كل صوب وحدب ليروا ماذا جرى. وظل الجميع فى ذهول أمام ابن سوجولون، كما هُرعت الملكة الأم. وحينما رأت مارى جاتا واقفا على قدميه، ارتعدت فرائصها، وحينما نفخ نفخة قوية، عندها ترك ابن سوجولون العصا تقع منه، لقد ابتعد الجمع، فقد كانت خطواته الأولى خطوات عملاق. أما بلاّفاسيكيه فقد تعقب خطوات جاتا مشيرا إليه بإصبعه صائحا:

"مكان، مكان، افسحوا الطريق".

لقد مشى الأسد

أيتها الظباء، توارى..
ابتعدى عن طريقه"

وخلف "نيانى" كانت هناك شجرة باوباب صغيرة، كان الأطفال يأتون إليها من المدينة لجمع أوراقها لأمهاتهم، وبكل قوة الذراع انتزع ابن سوجولون الشجرة، ووضعها على كتفيه. وعاد بالشجرة إلى الدار، وألقى بها بالقرب من أمه وقال :

- أمى.. إليك أوراق الباوباب.. إنها لك. ومن الآن ستأتى نساء نيانى ليتزودن بما يحتجن إليه. لقد مشى سوجولون جاتا.. ومنذ ذلك اليوم لم تهنأ الملكة الأم براحة البال. لكن ماذا يمكن عمله أمام القدر؟ لا شىء؛ فالمرء يعتقد تحت أوهام معينة، أنه يستطيع أن يُعدل الطريق الذى خطّه الله لكن ما يفعله يدخل فى النظام العلوى الذى لن يفهمه أبدًا. لهذا ذهبت جهود ساسوما ضد ابن سوجولون أدراج الرياح، وكل ما فعلته كان من قدر الطفل. فبالأمس كان محتقرا وسخرية الجميع، واليوم صار ابن سوجولون محبوبا من الجميع. وهو الذى كان محتقرا، فالناس يحبون القوة ويخشونها. إن كل نيانى لا تتحدث سوى عن جاتا والأمهات تدفعن بأطفالهن ليصبحوا رفقاء صيد لجاتا، وليشاركوه لعبه كمن تردن استفادة أبنائهن من هذا المجد الوليد لابن المرأة العجل. لقد قفزت إلى ذاكرة الناس أقوال دووا يوم التعميد، إنهم الآن يحيطون سوجولون باحترام شديد، ويحبون فى أحاديثهم أن يضعوا تواضع سوجولون فى مقابل غرور وأذى

ساسوما الشريرة، ذلك لأن الأولى كانت زوجة وأمًا مثالية، لذا وهب الله عز وجل القوة لساقى ابنها؛ إذ يقال: "ما من امرأة تحب زوجها وتحترمه، وتكابد من أجل ابنها، إلا وستكافأ على ذلك يوماما. فكل إنسان هو ابن أمه: ومقام الطفل من مقام أمه، فلم يكن مثيرا للدهشة أن الملك دانكاران تومان كان كئيبا، حيث لم تبد أمه أدنى احترام لزوجها الراحل، ولم تبد أى تواضع أمام الملك كما يتوجب أن تفعل كل امرأة أمام زوجها. إنهم يتذكرون لها مشاهد الغيرة وأقوالها الشريرة التى نشرتها فى حق ضُرتها وابنها، وخلص الناس إلى: أن لا أحد يمكنه أن يعرف أسرار صنع الله تعالى، فالثعبان ليس له أرجل لكنه أسرع من غيره من الحيوانات من ذوات الأربع!

ومن يوم لآخر، زادت شعبية سوجولون جاتا، وكان يحاط بكوكبة من الصبية فى مثل سنه، ومنهم: فران كمارا Fran Kamara ابن ملك طابونTabon وكذلك كامانجان ابن ملك سيبى، وغيرهم من الأمراء الذين كان آباؤهم قد أرسلوهم إلى بلاط ملك نيانى. وكان ماندينج بورى ابن نامانجيه قد سبقهم بالانغماس فى ألعابهم. كما كان بلاّ فاسيكيه يتابع سوجولون جاتا طوال الوقت، لقد تجاوز العشرين عاما، وهو الذى يعلم الصبى ويقدم له المعارف حسب مبادئ الماندينج. ولا يدع أية فرصة دون أن يعلم تلميذه الصيد، أو فى المدينة، فقد التحق بعض أبناء "نيانى" بألعاب الطفل الملكى. إنه يحب الصيد بوجه خاص، ولذا صنع فاراكورو صاحب مسابك الحديد،

قوسا جميلا لجاتا، وكشف مارى جاتا عن خبرته فى رمى القوس. وقام بالخروج للصيد مع أقرانه عدة مرات، وفى المساء يتجمع أبناء نيانى يقفون فى استقبال الصيادين الشبان بينما يغنى الجمهور نشيدا للقوس الذى ألفه بلاّ فاسيكيه. إن سوجولون جاتا لا يزال صغيرا على حمل لقب سيمبون أى المعلم الصياد، وهو لقب لا يخلع سوى على كبار الصيادين الذين أثبتوا جدارتهم.

وكانت سوجولون كيجو تجمع أمام دارها كل مساء بين جاتا ورفاقه تقص عليهم قصص حيوانات الغابة، أخوة البشر الصامتين. لقد تعلم ابن سوجولون أن يميز بين الحيوانات: عرف لماذا كان العجل هو قرين أمه. وعرف أيضا لماذا كان الأسد هو حامى أسرة أبيه. لقد أنصت جيدا لتاريخ الملوك الذى قصه عليه بلاّ فاسيكيه، وأنصت وهو مفتون بتاريخ ذى القرنين Djoulou Kara Naïni ملك الذهب والفضة العظيم، ذلك الذى أضاءت شمسه نصف العالم(١).

لقد أطلعت سوجولون ابنها على أسرار عدة فكشفت له عن اسم النباتات الدوائية، التى يجب أن يعرفها كل صياد عظيم. وهكذا بين أمه وراويه عرف الطفل كل ما ينبغى عليه معرفته.

لقد بلغ ابن سوجولون سن العاشرة، وصار اسم "سوجولون جاتا" ينطق بسبب سرعة النطق لدى المانينكا Soundyata سونچاتا أو سينجاتا Sondyata لقد صار شابا يافعا مليئا بالحيوية، إذ

تبلغ قوة ذراعيه ما يساوى قوة عشرة أذرع وكانت رأسه الكبيرة تثير الرعب لرفاقه. وكان يتحدث بلغة آمرة مثل أولئك الذين يتوجب عليهم القيادة. كما صار "ماندينج بورى" شقيقه أفضل صديق له. ففى اللحظة التى يُرى فيها جاتا، يظهر ماندينج بورى على الفور، لقد كانا كرجل وظله. وكان فران كامارا، وكامانجو أفضل أصدقائه من الأمراء الشبان، وبلاّ فاسيكيه يتبعه كملاك حارس.

وكانت شعبية سونجاتا قد بلغت مبلغا جعلت الملكة الأم تقلق على عرش ابنها دانكاران تومان الذى كان يمكن أن يطاح به بسهولة، وهو فى الثامنة عشر من عمره كان لا يزال يخضع لنفوذ أمه وبعض العجائز من أصحاب المكائد. وكانت ساسوما بيرتيه تحكم باسمه. وأرادت الملكة الأم أن تضع حدا لهذه الشعبية، وذلك بقتل سونجاتا، وهكذا استقبلت فى إحدى الليالى فى دارها العرافات العجائز التسع الكبار للماندينج. كن نسوة عجائز أكبرهن سنا وأخطرهن كانت تدعى سوموسو كونكومبا Soumosso Konkomba، وحينما أجلست الشريرات التسع فى نصف دائرة حول سرير الملكة الأم، قالت لهن:

– أنتن من تحكمن بالليل، أنتن قوى الظلام، أنتن اللاتى تحفظن سر الحياة، وأنتن أيضا اللاتى تقدرن على إنهاء الحياة، أيمكنكن مساعدتى؟

- قالت سوموسو كونكومبا: الليل مفعم بالقوة، أيتها الملكة.. أخبرينا ماذا يجب علينا فعله، وعلى من يتوجب أن نوجه السهم القاتل؟

- قالت ساسوما: أريد التخلص من سونچاتا، لأن مستقبله يتعارض مع مستقبل ابنى، يجب قتله، فلا يزال هناك وقت، فإذا نجحتن فى ذلك أعدكن بجوائز عظيمة، وسأعطى كل واحدة منكن - قبل أى شيء - بقرة وعجلها، واذهبن منذ الغد إلى المخازن الملكية لتحصل كل واحدة منكن على مائة مكيال من الأرز ومثلها من العلف.

واستطردت سوموسو كونكومبا: يا أم الملك إن الحياة لا تتعلق سوى بخيط رفيع، لكن كل شيء هنا مترابط بعضه ببعض، فللحياة سبب وللموت أيضا، وكلاهما ينسلخ من الآخر، وكراهيتك أيضا لها سبب، وعملك أيضا يجب أن يكون له سبب.

- يا أم الملك الكل مترابط، فلن يكون لعملنا أثر، إلا إذا كنا فى خلاف معه، لكن مارى جاتا لم يسبب لنا ضررا، وسيكون من الصعب إيذاؤه.

- لا بل أنتم فى خلاف معه، أجابت الملكة الأم، لأن ابن سوجولون سيكون كارثة علينا جميعا.

- قالت إحدى العرافات: الثعبان نادرا ما يعض القدم التى لا تسير.

– أجابت: نعم لكن هناك ثعابين تهاجم كل الناس. دعى سونچاتا يكبر، سندفع ثمن ذلك جميعا. اذهبن غدا إلى بستان سوجولون وتظاهرن بجمع بعض أوراق النبات حيث يقوم مارى جاتا على حراسته، سترين كم هذا الولد شرير، فلن يعمل أى اعتبار لسنكن، وسيوسعكن ضربا.

– قالت إحداهن: يا لها من فكرة بارعة.

– لكن مصدر سخطنا هنا سيكون نحن أنفسنا، لأننا سنأخذ أشياء ليست ملكا لنا.

– قالت أخرى: سنعاود الجرم.. فإذا ما ضربنا ثانية، يمكننا أن نؤنبه لأنه شرير وبلا قلب. عندها سيتوفر لدينا السبب كما أعتقد.

– قالت سوموسو كونكومبا.. الفكرة بارعة، سنذهب غدا إلى بستان سوجولون.

– وهذا ما ستجدونه، قالت الملكة الأم وهى تضحك فرحة. اذهبّن غدا إلى البستان وسترون أن ابن سوجولون شرير، وقبل ذلك اذهبن للمخازن الملكية، لتحصلّن على ما وعدتكنّ به من حبوب، أما الأبقار وثيرانها فهى لكنّ منذ الآن.

أطاعت الشريرات العجائز.. اختفين تحت جنح الظلام الدامس. كانت الملكة الأم وحدها تتلذذ سلفا بالنصر، إلا أن ابنتها نانا تريبان استيقظت.

– تساءلت: أمى مع من كنت تتحدثين؟ أظن أننى سمعت أصواتا؟

– قالت الأم: نامى صغيرتى، ليس هناك شىء إنك لم تسمعى شيئا.

وفى الصباح، جمع سونچاتا رفاقه كعادته أمام دار أمه قائلا:

– ماذا ستصطاد اليوم من الحيوانات؟

– قال كامانجان، أريد أن نهاجم الأفيال.

– وقال فران كامارا: وهذا رأيى أيضا، ذلك يسمح لنا بالذهاب بعيدا فى الأدغال.

وغادرت المجموعة الشابة بعد أن ملأت سوجولون الحقيبة بالمواد الغذائية.

وعاد سونچاتا ورفاقه متأخرا إلى القرية، وأراد سونچاتا كعادته أن يلقى نظرة على بستان أمه. كان وقت الغسق، حيث وجد العرافات التسع اللاتى كن يقمن بالإغارة على أوراق نبات النيوغو Gnougou، لقد باغتهن، وتظاهرن بالهرب مثل لصوص أخذوا على غرة.

– قال جاتا: قفن، قفن، لماذا تهربن أيتها العجائز البائسات؟ هذا البستان ملكنا جميعا.

وبادر سونچاتا ورفاقه بملء القنانى للعجائز بأوراق النباتات (الخردل) والباذنجان والبصل.

- وقال لهن سونچاتا: إذا احتجتن أوراق الخردل مرة ثانية.. أقبلن دون خوف أو وجل لتتزودن من هنا بما تحتجن إليه.

- ردت إحدى الشريرات التسع: لقد جردتنا من السلاح.

- أضافت أخرى: لقد أدهشتنا بطيبتك.. لقد أفحمتنا.

- قالت سوموسو: انصت يا جاتا.. لقد أتينا إلى هنا لنختبرك فنحن لم نكن فى حاجة إلى أوراق الخردل قط. لقد أدهشنا كرمك، لقد أرسلتنا الملكة الأم لنتحداك ونثير ضدك غضب قوى الظلام. لقد عجزنا أمام ذلك القلب الملىء بالطيبة، ونقول إننا قد قبضنا مائة مكيال أرز ومائة أخرى من الذرة البيضاء، فضلا عما وعدتنا به الملكة فلكل منا بقرة وعجلها.. أيها الابن.. ابن سوجولون.. سامحنا.

- رد جاتا: خذوها، ليس لدى رغبة فيها.. لقد عدنا من الصيد أنا وأقرانى.. وقد قتلنا عشرة أفيال سأعطى لكل واحدة منكن فيلا.. هاكم اللحم.

- نشكرك يا ابن سوجولون!

- نشكرك يا ابن العدل!

- سنسهر على رعايتك من الآن.. (قالت سوموسو كونكومبا).

واختفت العرافات التسع تحت جنح الليل. واستأنف سونچاتا ورفاقه طريقهم إلى نيانى وعندما عادوا كان الليل قد أرخى سدوله.

– قالت سوجولون كولونكان، شقيقة جاتا الصغرى، هل كنت خائفا حقيقة؟

لقد سببن لك الخوف.. هؤلاء العرافات التسع!!

– رد سونچاتا: كيف عرفت ذلك.. قالها مندهشا.

– قالت: لقد رأيتهن في الليل وهن يتآمرن. لكنى كنت أعرف أنك لن تتعرض للخطر.

كانت كولونكان غارقة فى فن الكهانة (العرافة)، وكانت تسهر على أخيها دون أن يرتاب فى ذلك.

الهوامش:

(١) Djoulou Kara Naïni هو تحريف فى الماندنجية لاسم Doul Kara Naïn ذو القرنين، وهو الاسم الذى خلعه المسلمون على الإسكندر الأكبر، وفى كل تراث الماندينج. من المستحب كثيرا المقارنة بين سونچاتا والإسكندر، حيث يقال إن الإسكندر هو الفاتح ما قبل الأخير للعالم، وأن سونچاتا هو الفاتح السابع والأخير.

المنفى

كانت سوجولون أما حذرة، كانت تعلم كل ما يمكن أن تفعله ساسوما لإيذاء أسرتها، وذات مساء، وبعد أن تناول الأطفال طعامهم، جمعتهم وقالت لسونچاتا:

– لنرحل من هنا يا ولدى، إن ماندينج بورى، وجامارو ضعفاء، فليس لهما فى خفايا الليل، وليسا بعرافين، ستتجه ساسوما بضرباتها إلى أخيك وأختك لعجزها عن إيذائك. فلنرحل من هنا، وستعود لاحقا، عندما تكبر، ستعود لتحكم، لأن مصيرك يجب أن يتحقق فى بلاد الماندينج.

كان هذا هو قرار الحكمة: فماندينج بورى، ابن نامانجيه الزوجة الثالثة لناريه ماغان، ليست لديه أية موهبة فى فن العرافة والكهانة، وسونچاتا يحبه كثيرا، فقد احتضنته سوجولون منذ وفاة والـــدته، ووجـــد سونچاتا فى أخيه غير الشقيق الخل الوفى. فالمرء لا يختار أهله، لكننا يمكننا اختيار أصدقائنا. كان سونچاتا وماندينج بورى صديقين حميمين حقا، ومن أجل إنقاذ شقيقه قبل جاتا بالمنفى.

أعد بلاّ فاسيكيه – راوى جاتا – بدقة للرحيل، وكانت ساسوما بيرتيه تراقب سوجولون وأسرتها.

وذات صباح جمع الملك دانكاران تومان، المجلس، وأعلن عن عزمه إيفاد وفد رسمى لملك سوســو القــوى، ســوماؤرو كانتيــه

Soumaoro Kante، فى مهمة خطيرة، لذا فكر فى بلاّ فاسيكيه، ابن دووا راوى أبيه، ووافق المجلس على قرار الملك، وأسندت الرئاسة لبلاّ فاسيكيه وتم تشكيل الوفد.

تلك كانت وسيلة بارعة فى اختطاف راوى سونچاتا الذى أعطاه إياه والده. لقد كان جاتا فى مهمة صيد، ولما عاد فى المساء أنبأته أمه سوجولون كيجو بالخبر. وكان الوفد قد سافر فى صباح اليوم نفسه، وتملك سونچاتا غضب شديد.

– ما هذا أيخطفون منى الراوى الذى أعطاه إياى والدى! لا فليعيدوا إلىّ راوى! قالت سوجولون لابنها: تمهل، دعه يفعل ما يشاء، إنها ساسوما التى تتصرف هكذا!

إنها لا تعلم أنها تطيع أوامر عليا..

– تعال معى، قال سونچاتا لأخيه ماندينج بورى.

وخرج الأميران. دفع جاتا بقوة حراس بيت دانكاران تومان. (ولما كان) لا يزال حانقا، لم يستطع النطق، وها هو ماندينج بورى يتحدث:

– أخى دانكاران تومان، لقد انتزعت نصيبنا من الميراث، فلكل أمير راوٍ. لقد انتزعت بلاّ فاسيكيه، وهو ليس ملكك. إن بلاّ أينما يكون فهو راوى جاتا، وحيث إنك لا ترغب فى وجودنا بجانبك سنترك بلاد الماندينج، وسنذهب بعيدا!

- وسأعود، أضاف بقوة ابن سوجولون، سأعود، أتسمعنى؟

- أجاب الملك: أنت تعرف أنك سترحل لكنك لا تعرف ما إذا كنت ستعود.

- وكرر جاتا، سأعود، أتسمعنى؟

كانت اللهجة قاطعة، وسرت رعشة فى جسم الملك "دانكاران تومان". ارتعدت كل فرائصه. وانصرف الأميران وهرعت الملكة الأم مذعورة فوجدت ابنها فى حالة من الانهيار.

- أمى، سيسافر، وقال إنه سيعود. لكن لماذا يسافر.. أريد أن أعيد إليه راويه. لماذا يسافر؟

- أجل، سيبقى إذا كنت تريده. إذن تخل له عن العرش. إنك ترتعد أمام تهديدات طفل فى العاشرة من عمره! تنازل له عن مكانك. فأنت لا تقوى على الحكم، أما أنا فأريد العودة لقرية آبائى. لا يمكننى العيش فى ظل استبداد ابن سوجولون. أريد أن أكمل أيامي بجانب آبائي وأهلى، وسأعلن أن لى ابنا يخاف أن يحكم.

لقد انتحبت ساسوما كثيرا، حتى إن دانكاران تومان قد أبان فجأة عن روح صلبة كالحديد. الآن يريد الموت لأشقائه. حسنا فليسافروا! لا يهم . ولن يقابلهم أبدا فى طريقه. سيحكم، بمفرده، فالسلطة لا تحتمل الشراكة.

هكذا عرفت سوجولون وأطفالها النفى. ما أبأسنا! أننا نعتقد أننا نسيئ إلى مستقبلنا لكننا نعمل وفق قدرنا تماما. إن عملنا لا يصدر عنا، لأننا مأمورون.

ظنت ساسوما بيرتيه أنها انتصرت؛ لأن سوجولون وأطفالها هربوا من بلاد الماندينج!

لقد حرثت أقدامهم غبار الطرقات، وعانوا من الإهانات التى يشهدها أولئك الذين يغادرون وطنهم. كانت الأبواب موصدة فى وجوههم، وطردهم الملوك من بلاطهم، لكن كل ذلك كان يصب فى المستقبل العظيم لجاتا. لقد مضت سبع سنوات. وتعاقبت سبع شتاءات، وتسلل النسيان إلى أرواح البشر، لكن الزمن كان يمضى بنفس القدر. تعاقبت الأقمار فى نفس السماء، والأنهار تجرى فى مستقرها لتكمل دورتها الدائمة. مضت سبع سنوات. وكبر سونچاتا. صار قويا عفيا، وأكسبته المصائب حكمة العقل. لقد صار رجلا. وأحست سوجولون بعبء السن والمسئولية يثقلان على كتفيها. بينما جاتا، تلك الشجرة النامية تنطلق نحو السماء.

* * *

لقد غادروا "تيانى"، وتوقفت سوجولون وأبناؤها فى جيديبا Djedeba لدى الملك مانسا كونكون Mansa Konkon، العراف العظيم. كانت جيديبا إحدى المدن الواقعة على نهر الجوليبا على بعد

يومين من نياني. استقبلهم الملك بحذر، لكن لأن الغريب له حق الضيافة أينما حل، فقد أنزلهم الملك فى حرمه الملكى. وفى خلال شهرين اندمج سونچاتا وماندينج بورى فى ألعاب أطفال الملك. وذات مساء كان الأطفال يلعبون أمام القصر فى ضوء القمر، قالت ابنة الملك التى لم تكن قد تجاوزت عامها الثانى عشر إلى ماندينج بورى:

أتعرف أن والدى عرّاف كبير.

- قال آه.... نعم "قالها ماندينج بورى ببراءة.

- قالت: نعم! لكن كيف؟ أنت لا تعرفه؟ وأن قوته تكمن فى لعبة الورى Wori هل تعرف لعب الورى؟ (١)

- إن أخى هو أيضا عراف كبير.

- لكنه لا يرقى إلى قوة والدى دون شك!

- كيف؟ هل يلعب والدك بالورى؟

فى هذه اللحظة نادت سوجولون أبناءها، حيث أشرف القمر على المغيب،

- قال سونچاتا الذى كان يقف بعيدا: والدتى تنادينا تعال ماندينج بورى، أتحب ابنة مانسا كونكون إن صح ظنى؟

- قال: نعم يا أخى! لكن أعلم أنك لكى تقود بقرة إلى الحظيرة، يكفى أن تأخذ العجل.

-حقا فالبقرة تتبع مختطفها. لكن يجب الحذر. إذا كانت البقرة هائجة فويل للخاطف!.

عاد الشقيقان وهما يضربان الأمثال، فحكمة الرجال تحويها الأمثال. وحينما يمارس الأطفال ضرب الأمثال، فهى علامة على استفادتهم من مجاورة البالغين.

فى ذلك الصباح لم يخرج كل من سونچاتا وماندينج بورى من الحرم الملكى. كانا يلعبان مع أبناء الملك تحت شجرة الالتقاء.

وفى بداية ما بعد الظهيرة، استدعى مانسا كونكون ابن سوجولون إلى قصره. كان الملك يقيم فى تيه حقيقى، وبعد عدة دورات ولفات داخل أروقة القصر المظلمة، ترك أحد الخدم جاتا فى بهو ذى إضاءة خافتة. تلفت جاتا حوله، فلم يكن خائفا. فالخوف يدخل إلى قلب من يجهل مستقبله، لكن سونچاتا كان يعرف أنه كان يسير نحو مستقبل عظيم. لم يكن يعرف ما هو الخوف. وحينما اعتادت عيناه على شبه الظلام هذا، رأى سونچاتا الملك وهو يجلس فى ضوء معاكس على جلد كبير لعجل، كما رأى سونچاتا أسلحة جميلة معلقة على الحوائط، فتساءل متعجبا:

- أيها الملك مانسا كونكون.. إن لديك أسلحة جميلة! وأمسك بسيف وبدأ فى المباراة بمفرده ضد عدو خيالى، نظر الملك مندهشا إلى الطفل الخارق للعادة:

– قال الطفل: لقد استدعيتنى .. أنا هنا. وأعاد السيف إلى مكانه.

– قال الملك لسونچاتا: اجلس! لقد اعتدت على دعوة ضيوفى للعب معى، سنلعب، سنلعب الورى، لكن لدى شروط ليست شائعة وهى: إذا فزت، وسأفوز، سأقتلك.

– رد جاتا: وإذا فزت أنا؟ قالها جاتا دون خوف.

– رد الملك: فى هذه الحالة سأعطيك كل ما تطلب، لكن لتعرف أننى أفوز دائما.

– رد جاتا: إذا فزت: فلن أطلب منك سوى هذا السيف، مشيرا إلى السيف الذى كان قد جربه.

– قال الملك: موافق، أنت واثق بنفسك. أليس كذلك! وسحب الخشب الذى حفرت فيه عيون الورى. ووضع أربعًا من الحصى فى كل عين.

– وقال الملك: سأبدأ، وأخذ أربع من الحصى من إحدى العيون ووزعها وهو ينشد الكلمات:

لعبة الورى هى من ابتكار صياد
لا أُجارى فى هذه اللعبة.
أنا أُدعى "الملك المدمر

أخذ سونچاتا الحصى من إحدى الحفر وأنشد يقول:

قديما كان الضيف مقدسا.

لكن الذهب كان بالأمس،

- وأنا من قبل الأمس

- زأر الملك مانسا كونكون قائلا: أحدهم خانني أحدهم خانني!

- قال سونچاتا: لا .. أيها الملك.. لا تتهم أحدا.

- إذن؟

- لقد رأيت عندك ثلاثة أقمار، إنك لم تدعوني قط إلى لعب الوري، فالرب هو لسان الضيف، وأقوالي لا تعبر سوى عن الحقيقة لأنني ضيفك.

والحقيقة هي أن الملكة الأم لنياني كانت قد أرسلت الذهب إلى مانسا كونكان كي يقوم بقتل سونچاتا. "الذهب كان بالأمس" وسونچاتا - سابق عن مجيء الذهب إلى بلاط الملك. والحقيقة هي أن ابنة الملك قد أفشت السر إلى ماندينج بوري.

قال الملك المرتبك: إذن لقد فزت، لكن لن تحصل على ما طلبت، وسأطردك من مدينتي!

- قال سونچاتا: شكرا على ضيافتكم لنا لمدة شهرين أيها الملك، مانسا كونكان سأعود من جديد! استأنفت سوجولون وأطفالها طريق المنفى مبتعدين عن النهر. واتجهوا صوب الغرب. راحوا يطلبون الاستضافة لدى ملك طابون في البلاد التي تسمى اليوم فوتا

جالون Fouta Djallon، كان يسكن هذه المنطقة الكامارا الحدادون والجالونكيين. كانت طابون مدينة منيعة تتحصن بالجبال. وكان الملك حليفا لبلاط نيانى من مدة طويلة، وكان ابنه فران كامارا أحد رفاق سونچاتا. وبعد رحيل سوجولون أعيد الأمراء رفاق جاتا إلى أسرهم.

كان ملك طابون قد هرم، ولا يريد أن يختلف مع ذاك الذى كان يحكم فى نيانى، فاستقبل سوجولون بلطف، وأشار عليها أن تسافر إلى أبعد ما يمكن. واقترح عليها بلاط واجادو Wagadou، حيث يعرف ملكها. وهناك بالفعل كـــانت قافلة من التجار على سفر إلى واجادو[٢]، وأوصى الملك العجوز التجار بسوجولون وأبنائها، وقام بتأخير الرحيل لبضعة أيام ليسمح للأم بأن تخلد للراحة من متاعبها.

وهكذا التقى سونچاتا وماندينج بورى بفرح مع فران كامارا، الذى قام بتواضع بعمل زيارات لهما إلى قلاع طابون، مما آثار فيهما الإعجاب بذلك الباب الحديدى العملاق. وزارا ترسانات الملوك. وكان فران كامارا سعيدا للغاية باستقبال سونچاتا. ولما جاء اليوم الحاسم يوم الرحيل، كان كامارا حزينا أشد الحزن، حيث كان قد دعاهما عشية السفر للقيام بجولة صيد وتحدّث الشباب فى الأدغال مثل الرجال.

- قال سونچاتا: حينما أعود إلى بلاد الماندينج، سأمر عبر طابون لاصطحابك، لنذهب معا إلى نيانى.

- أضاف ماندينج بورى: من هنا إلى هناك سنكون قد كبرنا.

- قال فران كامارا: سيكون لى جيش طابون، فالحدادون والجالونكيون محاربون أشداء، وقد حضرت ذات مرة تجمعّ الرجال بأسلحتهم الذى ينظمه والدى مرة كل عام.

- سأجعل منك قائدا كبيرا! سنجوب بلادًا عديدة، وسنكون الأكثر قوة. سيرتعد الملوك أمامنا مثل المرأة التى ترتعد أمام الرجل! هكذا تحدث ابن سوجولون.

استأنف المنفيون الطريق. كانت طابون تبعد كثيرا عن واجادو. وكان التجار طيبين مع سوجولون وأطفالها. وكان الملك قد زوّدهم بالمطايا. واتجهت القافلة اتجاه الشمال، تاركة بلاد كيتا إلى الشرق.

وفى الطريق قص التجار إلى الأمراء كثيرا من أحداث الماضى. وأبدى مارى جاتا اهتماما خاصًا بالقصص التى تتناول الملك العظيم الحالى سوما ؤرو كانتيه، فقد كان بلاّ فاسيكيه قد سافر إليه - أى إلى سوسو - فى وفد. وعرف جاتا أن سوماؤرو ملك شديد البأس شديد الثراء، حتى إن ملك واجادو كان يدفع له جزية، كما كان أيضا ملكا فظا.

كانت بلاد واجادو بلادا جافة، تفتقر للمياه. وقديما كان "السيسيه" Cissé فى واجادو هم الأمراء الأكثر بأسا، فهم ينحدرون

من سلالة "ذى القرنين" وهو ملك الذهب والفضة، لكن ومنذ نقض السيسيه عهد الأجداد بدأت قوتهم فى التناقص.

وفى زمن سونچاتا كان أحفاد ذى القرنين يدفعون الجزية لملك Sosso! وبعد عدة أيام من السير وصلت القافلة أمام واجادو. وأشار التجار لسوجولون وأطفالها إلى الغابة الكبيرة فى واجادو، التى كان يسكنها الثعبان الكبير "بيدا" Bida وكانت المدينة محاطة بأسوار ضخمة. ولاحظ المسافرون أن هناك العديد من التجار البيض فى واجادو، كما رأوا حول المدينة العديد من المخيمات والجمال التى كانت تتجول فى الأماكن المجاورة.

وكانت واجادو بلاد السراكوليه، فالناس هنا لا يتحدثون لغة الماندينج، ومع ذلك هناك الكثير من الأشخاص يفهمونها لأن السراكوليه يسافرون كثيرا، فهم كبار التجار، وقوافلهم من الحمير المحملة بأوزان ثقيلة، وكانوا يأتون فى كل موسم جفاف حتى نيانى، حيث كانوا يستقرون خلف المدينة ثم يخرج إليهم السكان للتبادل.

واتجه التجار تجاه الباب الأثرى للمدينة، وتحدث قائد القافلة إلى الحراس، وأشار أحدهم إلى سونچاتا وأسرته للحاق به، الذين دخلوا مدينة السيسيه. كانت منازل المدينة ذات أسطح، ولم تكن من القش، وهو ما يختلف تماما عن مدن الماندينج. وكان بالمدينة أيضا العديد من المساجد، وهو ما لم يدهش سونچاتا؛ لأنه كان يعرف أن السيسيه هم أيضا من كبار "المارابو"، ففى نيانى لا يوجد سوى مسجد

واحد. ولاحظ المسافرون أن الأروقة (الأبهاء) كانت ملحقة بالمنازل، أما عند الماندينج فالبهو أو الرواق "البولون" يكون مستقلا.

ولما كان المساء، توجه الجميع إلى المساجد، إلا أن المسافرين لم يفهموا شيئا من الكلام، سوى أن المارة كانوا يتبادلون الأنظار وهم يرونهم يتّجهون ناحية القصر. إن قصر ملك واجادو كان بناء مهيبا، فالجدران عالية، ويقال إنه كان سكنا للجن وليس للأشخاص. واستقبل شقيق الملك سوجولون وأطفالها، لأنه كان يفهم لغة المانينكا.

كان الملك يؤدى الصلاة، وأنزل أخوه المسافرين فى حجرة فسيحة، وأتى إليهم بالماء ليرووا ظمأهم. وبعد الصلاة عاد الملك إلى قصره، واستقبل الأجانب وقام شقيقه بالترجمة.

– حيا الملك الغرباء.

– قالت سوجولون: نحن نحيى ملك واجادو!

– إن الغرباء دخلوا فى سلام إلى واجادو، ونرجو أن يظلوا فى سلام فى مدينتنا.

– آمين!

– وأعطى الملك الكلام إلى الغرباء.

– بدأت سوجولون كلامها: إننا من بلاد الماندينج، كان والد أطفالى هو الملك ناريه ماغان. الذى كان قد أرسل – منذ عدة

سنوات – وفدا للمحبة إلى واجادو. لقد توفى زوجى، لكن المجلس لم يحترم إرادته، إن ابنى البكر (أشارت إلى سونچاتا) أُقصى عن العرش. وفضلوا عليه ابن ضُرتى. لقد عرفنا النفى. إن بُغض ضرتى طردنى من كل المدن. لقد طرقنا كل السبل أنا وأبنائى. واليوم أتيت طلبا للجوء لدى السيسيه فى واجادو.

سادت بضع لحظات من الصمت، وأثناء خطاب سوجولون، لم يرفع كل من الملك وشقيقه ناظريهما عن سونچاتا للحظة، فأى طفل آخر فى الحادية عشرة من عمره لابد أن يحس بالاضطراب من نظرات الكبار، لكن سونچاتا، احتفظ بهدوئه وكان ينظر بهدوء إلى الزخارف الفخمة لحجرة استقبال الملك، والسجاجيد الوثيرة والسيوف الجميلة المعلقة على الحوائط، والملابس الفخمة لجلساء الأمراء.

وفى دهشة كبيرة من سوجولون وأطفالها تحدث الملك أيضا وبلغة الماندينج:

– لم يحدث قط أن خُذل غريب فى ضيافتنا، فحرمنا هو حرمكم، وقصرنا هو قصركم، أنتم فى محفلكم، من نيانى إلى واجادو اعتبروا أنكم بدلتم حجرتكم فقط!

فالمحبة التى تربط الماندينج بالواجادو ترجع إلى عصور بعيدة.

فالأجداد والرواة يعرفونها، فعمومة الماندينج هم عمومتنا..

- وقال موجها كلامه لسونچاتا وبلهجة حميمة.

- اقترب ابن العم.. ما اسمك؟

- اسمى مارى جاتا كما أدعى أيضا ماغان، لكن الأكثر شيوعا يسموننى سوجولون جاتا.. وأخى، يدعى ماندينج بوكارى، وأختى الكبرى تسمى جامارو والأخرى سوجولون كولونكان.

- وأن هذا الذى سيكون ملكا عظيما لا ينسى أحدا.

أما وقد رأى الملك أن سوجولون كانت فى أشد التعب، فقال:

- إخوتى، اهتموا بضيوفنا، وعاملوا سوجولون وأطفالها معاملة ملكية، ومنذ باكر سيتبوأ أمراء الماندينج مكانهم بين أبنائنا!

***

سرعان ما تخففت سوجولون من متاعبها. وكانت تعامل كملكة فى بلاط الملك سومابا سيسيه Soumaba Cissé. وألبسوا الأطفال على طراز أطفال واجادو. فقد ارتدى سونچاتا وماندينج بورى قمصانا طويلة بديعة مطرزة. وأحاطوهم بكثير من الرعاية لدرجة ضايقت ماندينج بورى، لكن سونچاتا رأى ذلك أمرا طبيعيا، أن يعامل على هذا النحو.

فالتواضع هو القاسم المشترك بين الرجال العاديين، أما الرجال ذوو المنزلة الرفيعة فلا يعرفون الخضوع. حتى سونچاتا

نفسه صار متشددا، بل أكثر من ذلك كان مبالغا، حتى إن الخدم يرتجفون أمامه. لقد قدره الملك كثيرا، الذى قال مرة لأخيه:

- إذا حدث ذات يوم وكانت له مملكة، سيطيعه الجميع لأنه يعرف كيف يدير الأمور!

عندئذ وجدت سوجولون سلامها فى واجادو، وهو الذى لم تجده لا فى بلاط جيدبا ولا فى طابون، غير أنها سقطت صريعة المرض خلال عام من إقامتها.

وقرر الملك سومابا سيسيه أن يرسل سوجولون وأبناءها إلى ميما فى بلاط ابن عمه تونكارا. كانت ميما عاصمة مملكة كبيرة على نهر جوليبا، بعد بلاد دو. وطمأن الملك سوجولون على الاستقبال الذى سيتم لها. وبلا شك فإن الهواء الذى يهب من النهر يمكن أن يعيد الصحة لسوجولون.

كان الأبناء فى عناء لمغادرة واجادو، لقد عقدوا صداقات كثيرة فيها، لكن المصير كان فى مكان آخر، لذا لزم الرحيل.

وعهد الملك سومابا سيسيه بالمسافرين إلى تجار كانوا متوجهين إلى ميما. كانت قافلة كبيرة، وتم السفر على ظهور الجمال. لقد اعتاد الأطفال منذ مدة طويلة على هذه الحيوانات غير المعروفة فى الماندينج. لقد قدم الملك سوجولون وأبناءها كأعضاء فى أسرته، وهكذا عوملوا بكثير من الاحترام من قبل التجار. أما سونچاتا المحب

دائما للمعرفة فقد أثار الكثير من الأسئلة لأعضاء فى القافلة كانوا على جانب كبير من العلم. لقد قصّوا أمورًا كثيرة لسونچاتا. حكوا له عن البلاد فيما وراء واجادو، بلاد العرب، الحجاز مهد الإسلام، ومهد أجداد جاتا. لأن بلال بوناما، الخادم الأمين للنبى، قدم من الحجاز. لقد تعلم الكثير من الأمور عن ذى القرنين. لكن التجار كانوا يتحدثون برعب عن سوماؤرو الملك العراف، النهاب الذى يسرق كل شىء من التجار حينما يكون فى مزاج عكر.

وكان رسول قد سافر مبكرا من واجادو ليخبر عن وصول سوجولون إلى ميما. فتم إرسال موكب كبير لاستقبال المسافرين. وأمام ميما كان قد أعد استقبال حقيقى؛ وكان رماة السهام والرماح، قد شكلوا صفا مزدوجا. أما التجار فلم يكن أمامهم سوى بذل المزيد من الاهتمام لرفاق الرحلة. كان هناك ما يثير الدهشة، وهو غياب الملك: كانت شقيقته هى التى نظمت هذا الاستقبال العظيم: حيث كان كل أبناء ميما على باب المدينة، ذلك أنه كان يُقال إنه ترحيب بعودة الملك. وفى ميما كان كثير من الناس يتحدثون المالينكيه. وسوجولون وأبناؤها استطاعوا فهم دهشة الناس الذين كانوا يتساءلون:

– من أين جاءوا؟ ومن هم؟

استقبلت شقيقة الملك سوجولون وأبناءها فى القصر. كانت تتحدث المانينكا بإجادة كبيرة. كانت تتحدث إلى سوجولون كما لو

كانت تعرفها منذ مدة طويلة. أنزلت سوجولون فى جناح بالقصر. وكعادته فرض سونچاتا نفسه بسرعة شديدة على الأمراء الشباب فى ميما. وفى عدة أيام عرف أركان وخبايا الحرم الملكى.

إن هواء ميما وهواء النهر قد أفادا كثيرا صحة سوجولون. كما تأثرت كثيرا من محبة شقيقة الملك، والتى كانت تدعى ماسيران Massiran. وأسرّت ماسيران، شقيقة الملك، إلى سوجولون أن الملك ليس له أبناء. أما الرفاق الجدد لسونچاتا فقد كانوا أبناء من أقطعهم الملك أرضًا فى ميما، كان الملك قد ذهب فى غزوة ضد سكان الأراضى الجبلية التى توجد على الجانب الآخر من النهر. وكان يقوم بذلك كل عام حيث إنه عندما يترك هذه القبائل وشأنها فى سلام، فإنها كانت تنزل من الجبال لتقوم بنهب البلاد.

لقد وجد سونچاتا وماندينج بورى متعتهم المفضلة، ألا وهى الصيد، كانوا يذهبون إليه مع شباب أبناء النبلاء فى ميما.

ومع اقتراب أشهر الشتاء تم الإعلان عن عودة الملك، حيث كانت تنظم مدينة ميما استقبالا حافلا لملكها: حيث يلبس موسى تونكارا ملابس فخيمة ويمتطى جوادا جميلا، وخيالته الأشداء يشكلون موكبا مهيبا، أما جنود المشاة فيسيرون فى صفوف يضعون على رؤوسهم الغنائم التى فازوا بها من العدو، وطبول الحرب تدق. بينما يسير الأسرى مطأطئ الرؤوس. والأيدى مشدودة إلى الظهر، كانوا يتقدمون والحزن بادٍ عليهم تحت صيحات استهزاء الجمهور.

وحينما استقر الملك فى قصره، قدمت له شقيقته ماسيران سوجولون وأبناءها وسلمته خطاب ملك واجادو. وكان موسى تونكارا بشوشًا إلى أقصى درجة وقال لسوجولون:

– سومالا Soumala ابن عمى أوصانا بكم، وهذا يكفى، أنتم فى دياركم. ستبقون هنا لأطول وقت تريدون.

وفى بلاط ميما قام سونچاتا وماندينج بورى بأول تدريب على السلاح. كان موسى تونكارا محاربا عظيما كما كان يعجب بالقوة. وحينما بلغ سونچاتا الخامسة عشرة كان الملك يصحبه معه فى غزواته. لقد أدهش سونچاتا الجيش لقوته وحميته فى الهجوم خلال مناوشة ضد ساكنى الجبال. انقض على العدو بعنف، حتى خشى عليه الملك. ذلك أن مانسا تونكارا، كان يعجب كثيرا لبراعة ابن سوجولون وشجاعته، حتى إنه لم يستطع أن يوقف من اندفاعه، وكان يتبعه عن قرب ليحميه، وكان ينظر بسرور لهذا اليافع وهو ينشر الهلع بين صفوف العدو، إذ كان له حضور ذهنى مشهود: كان يضرب يمنه ويسره ويفتح لنفسه طريقا منتصرا. وحينما يهرب العدو، يقول المحاربون[٤] القدماء: "إنه سيكون ملكا عظيما. وأخذ الملك موسى تونكارا ابن سوجولون بين ذراعيه قائلا: إنه القدر الذى أتى بك إلى ميما، سأجعل منك محاربا عظيما".

منذ ذلك اليوم لم يترك سونچاتا الملك قط. لقد بز كل الأمراء الشبان، وكان محبوبا من كل الجيش. الكل فى المعسكر لا يتحدث إلا عنه. كانوا أكثر اندهاشا لصفاء ذهنه. وفى المعسكر، كان جاهزا للرد على الجميع، وكانت المواقف الأكثر إثارة للحيرة تجد لدى هذا اليافع الحل.

وسرعان ما بدأ الناس فى ميما الحديث عن ابن سوجولون: أليست هى العناية الإلهية التى أرسلت بهذا الطفل فى هذه اللحظة حيث ميما لا وريث لها؟ الجميع يؤكد أن سونچاتا سيمد إمبراطوريته من ميما حتى الماندينج. وكان يشارك فى كل الغزوات، وأصبحت غارات العدو نادرة أكثر فأكثر، وذاعت شهرة ابن سوجولون وامتدت من هناك إلى ما بعد النهر.

وفى خلال ثلاث سنوات، عين الملك سونچاتا نائبا له. كان هو الذى يحكم فى غياب الملك. وكان سونچاتا قد بلغ ثمانية عشر عاما، وصار شابا عظيما ذا رقبة غليظة، لا يستطيع أحد أن يصوب بسهمه لهذا الصدر القوى، وكل العالم ينحنى أمامه، الكل يحبه، وأولئك الذين لا يحبونه يخشونه، أصبح صوته آمرا.

وافق الجيش والشعب على اختيار الملك، لقد أحب الشعب كل ما يفرضه عليه. أما أرباب ميما فقد كشفوا عن المصير الخارق للعادة لجاتا. وقيل إنه كان خليفة "ذى القرنين"، بل إنه سيكون أعظم. كذلك حلم الجند بآلاف الأحلام بالنصر فكم من الأمور التى يمكن

القيام بها مع مثل هذا القائد الشجاع! لقد ألهم سونچاتا الجنود الثقة بأن قدم إليهم المثال، لأن الجند يحبون أن يروا القائد وهو يتعرض للخطر. لقد صار جاتا الآن رجلا: لقد مضى الوقت منذ مغادرة نيانى، والمصير يجب أن يكتمل الآن. كانت سوجولون تعرف أن الساعة قادمة، لقد أدت مهمتها، لقد غذت الابن الذى كان العالم ينتظره، كانت تعرف أن مهمتها قد اكتملت الآن وأن مهمة سونچاتا قد بدأت. وقالت لابنها ذات يوم: لا تنخدع، إن مصيرك ليس هنا، إن مصيرك فى بلاد الماندينج، لقد جاءت اللحظة، لقد أنهيت مهمتى، إن مهمتك ستبدأ، يا بنى، لكن يجب أن تتمهل فكل شىء فى وقته.

الهوامش:

(١) "الورى" هى لعبة رائجة فى غينيا العليا، والسودان الغربى، وهى نوع من لعبة الضامة؛ حيث البيادق عبارة عن زلط صغير موضوع فى حفر حفرت فى جذع شجرة.

(٢) "واجادو" هو اسم بلاد غانا القديمة بلغة المالينكيه، حيث كان يحكمها الأمراء سيسيه – تونكارا Cissé- Tounkara .

(٣) "ديو" Dio أى المحظور الذى قرره أحد الأسلاف والذى يتوجب على الأخلاف احترامه، والمقصود هنا هى الأسطورة المعروفة لثعبان غانا، فهذه المدينة كان لها جنى يحميها، ثعبان عملاق، تقدم له كل عام فتاة كأضحية. وحدث أن وقع الاختيار على الجميلة "سيا" Sia؛ إلا أن خطيبها "محمد الأمين" Mamadou Lamine (بعض الروايات تطلق عليه أحمدو لوتاسيترن أى الصامت الذى قطع رأس الأفعى وأنقذ حبيبته)، ومنذ ذلك ابتليت المدينة بالكوارث حيث فر السكان من الجفاف الذى ضرب كل البلاد، ومع ذلك من الصعب تحديد تاريخ اختفاء مدينة غانا (واجادو) وبحسب "دولافوس" Delafosse، فقد دمرت المدينة من قبل سونچاتا نفسه عام ١٢٤٠، إلا أن "ابن خلدون" أتى بذكر غانا فى نهاية القرن الرابع عشر.

(٤) صوفا Sofa هم المحاربون– أى الجنود.

سوماؤرو كانتيه Soumaoro Kanté
الملك العرّاف

كان ابن سوجولون قد بدأ بطولاته، حين كان بعيدا عن مسقط رأسه. وكانت بلاد الماندينج Manding قد سقطت تحت هيمنة ملك جديد: سوماؤرو كانتيه، ملك سوسو Sosso.

ولما وصل الوفد الذى كان قد أرسله دانكاران توّمان إلى سوسو، طالب سوماؤرو أن تعترف الماندينج بخضوعها للسوسو وأدائها الجزية لها. ووجد بلاّ فاسيكيه، وفود عدة ممالك أخرى فى بلاط الملك سوماؤرو، إذ سرعان ما فرض ملك سوسو نفوذه على الجميع بقوة جيشه من الحدادين، فبعد هزيمة واجادو ودياغان diaghan لم يجرؤ أحد على الوقوف فى وجهه. وينحدر سوماؤرو من سلالة دياريّسو Diarisso الحدادين، الذين طوّعوا النار وعلّموا الناس شغل الحديد، إلاّ أن سوسو ظلت قرية صغيرة لا شأن لها لمدة طويلة، وكان ملك واجادو هو المسيطر على البلاد. لكن شيئا فشيئا كبرت مملكة سوسو على حساب واجادو، وهاهم آل الكانتيه يحكمون سيدهم القديم. ومثل كل أمراء الحرب، كان سوماؤرو كانتيه عرّافا كبيرا، كانت قوة تعاويذه مرعبة. لذا كان كل الملوك يرتعدون أمامه، بسبب تعاويذه هذه، إذ كان يقدر على إنزال الموت بمن يشاء. وكان قد حصّن بلاد سوسو بسور ثلاثى، حيث ينتصب قصره وسط المدينة

ويشرف على أكواخ القرى. وكان قد أمر ببناء برج فسيح ذى سبعة طوابق، وسكن هو فى الطابق السابع وسط تعاويذه. ولذا كان يسمى "الملك الذى لا يُمس".

كان سوماؤرو قد سمح بعودة بقية الوفد بعد أن احتجز بلاّ فاسيكيه، وهدد بتدمير نيانى إذا لم يذعن دانكاران تومان. وسرعان ما أعلن ابن ساسوما المذعور إذعانه، بل أرسل شقيقته نانا تريبان إلى ملك سوسو.

وذات يوم وكان الملك غائبا، تسللّ بلاّ فاسيكيه خلال القصر إلى أن بلغ الغرفة الأكثر سرية فيه، حيث يحتفظ الملك سوماؤرو بتعاويذه، فلما دفع الباب تسمرت قدماه من هول ما رأى: الحوائط مغطاه بجلود آدمية، وكان هناك جلد آخر وسط البهو، كان يجلس عليه الملك، وكان هناك تسعة رؤوس لموتى تشكل دائرة حول جرّة. وحينما فتح بلاّ فاسيكيه الباب، تحركت المياه بشدة داخل الجرة، وأطل ثعبان ضخم برأسه، وتلا بلاّ فاسيكيه الذى كان طويل الباع فى السحر، بعض التمائم، بعدها خلد كل ما فى الغرفة إلى الهدوء، وواصل ابن دووا بحثه.

رأى فوق السرير ثلاث بومات بدّون نائمات على مجش الطيور، وعلى الحائط فى الداخل كانت قد علقت أسلحة ذات أشكال غريبة: سيوف معقوفة، وسكاكين ثلاثية النصل. نظر "بلاّ" بانتباه لرءوس الموتى، وتعرف على الملوك التسعة الذين قتلهم سوماؤرو.

وعلى يمين الباب اكتشف آلة موسيقية ضخمة لم ير ضخامتها من قبل فى الماندينج، وبطريقة عفوية قفز، وذهب للجلوس ليلعب بالإكسليفون: فالراوى يضعف دائما أمام الموسيقى، لأن الموسيقى هى روح الراوى.

أخذ يلعب على الآلة، فلم يكن قد سمع قط من قبل أنغاما بمثل هذا الانسجام. وما كاد يلمسها مسا خفيفا بالعصا، حتى سربت الآلة النافخة الخشبية دفقة من الأنغام ذات عذوبة لا حد لها. وكانت العلامات الموسيقية واضحة، نقية مثل بودرة الذهب. وبين يدى بلاّ فاسيكيه الماهرة، وجدت الآلة أستاذا، فقد لعب بكل جوارحه، وانبهر كل ما فى الغرفة. ومن الانبساط، بدأت البومات الثلاث الناعسة بأعينهن شبه المغلقة فى تحريك رءوسهن بهدوء. وبدا أن الحياة دبت فى كل شىء مع نغمات هذه الموسيقى الساحرة: إذ استعادت رءوس الموتى التسعة شكلها الدنيوى، وخفقت جفونهم وهم ينصتون إلى هذه الموسيقى الرصينة إلى لحن "النسور". ومن الجرة ظهر الثعبان وهو يستمع للموسيقى وقد وضع رأسه على حافتها. وكان بلاّ فاسيكيه يشعر بسعادة بالغة لتأثير موسيقاه على السكان الشواذ لهذه الحجرة المرعبة. لقد عرف أن الآلة ليست كغيرها من الآلات، فهى آلة ملك ساحر، وكان الملك سوماؤرو هو الوحيد الذى يلعب على هذه الآلة. فبعد كل نصر، يأتى بها ليتغنى بمآثره، ولم يمسها راو قط، فلم يكن أحد يملك آذنا لسماع الموسيقى. كان سوماؤرو على ألفة كبيرة بهذه

الآلة، وفى غيابه أو حضوره، يكفى أن يلمسها ليعرف أن شخصا قد دلف إلى غرفته السرية.

لم يكن الملك ببعيد عن المدينة، فهرع إلى قصره، وصعد إلى الدور السابع. سمع بلاّ فاسيكيه صوت أقدام متعجلة فى البهــو، وإذ بسوماؤرو وقد هجم على الغرفة شاهرا سـيفه، وهــو يزبــد: مــن هناك....؟ أنت، يا بلاّ فاسيكيه!!

استشاط الملك غضبا، فجحظت عيناه الحمراوتان كالجمر المشتعل بقوة، إلا أن ابن دووا، الذى لم يفقد رباطة جأشه، ارتجل أغنيه للملك بعد تغيير اللحن حيث قال:

هذا هو سوماؤرو كانتيه

أحييك.. أنت يا من تجلس على جلد الملوك.

أحييك.. يا سيمبون.. يا بطلاً فى رمى السهم القاتل

أحييك.. يا من ترتدى ملابس من جلد آدمى.

أعجب سوماؤرو للغاية بهذا اللحن الذى أنشده بلاّ فاسيكيه.

فلم يسبق له أن سمع مثل هذا الكلام الجميل، والملوك بشر: الكلام يفعل بهم ما لم يقدر على فعله الحديد. وهم أيضا حساسون للتملق: فذهب الغضب عن سوماؤرو، وملأ الفرح قلبه، وكان يستمع بانتباه لهذه الموسيقى العذبة:

أحييك، أنت يا من يرتدى ثيابا من جلود آدمية

أحييك، يا من تجلس على جلد الملوك

كان بلاّ فاسيكيه يغنى، وأدخل صوته العذب الفرح إلى ملك سوسو.

- وقال الملك: إنه لشىء رائع أن يسمع المرء شخصا آخر يغنى له، يا بلاّ فاسيكيه لن تعود أبدًا لبلاد الماندينج، فمن الآن أنت الراوى الخاص لى.

إن بلاّ فاسيكيه، الذى منحه الملك ناريه ماغان إلى ابنه سونچاتا، كان قد اختطف من قبل دانكاران تومان، والآن فسوماؤرو كانتيه، ملك سوسو اختطف بدوره هذا الراوى الثمين والأمين، من ابن ساسوما بيريتيه.. ولذا أصبحت الحرب حتمية لا يمكن تجنبها بين سونچاتا و سوماؤرو.

تاريخ

بلغنا الآن اللحظات العظيمة فى حياة سونچاتا. سينتهى النفى. ستشرق شمس أخرى، إنها شمس سونچاتا. فالرواة يعرفون تاريخ الملوك والممالك؛ لهذا فهم خير من يقدمون النصيحة للملوك، ويجتهد كل ملك عظيم إلى أن يكون لديه راو ليخلد ذكراه. الراوى هو الذى يحافظ على ذكرى الملوك، إن البشر ذوو ذاكرة ضعيفة.

فللممالك مصيرها الذى رُسم لها مثل مصير البشر، والأرباب هى التى تعرفه، لأنهم ينقبون فى المستقبل، فهم من يملكون علم المستقبل، أما نحن الرواة الآخرون فنحن المؤتمنون على علم الماضى. ومن يعرف تاريخ دولة، يمكنه قراءة مستقبلها.

إن شعوبا أخرى تستعمل الكتابة لتثبيت الماضى، لكن هذا الاختراع قتل الذاكرة لديهم، فلم يعودوا يدركون الماضى، لأن الكتابة ليست لها حرارة الصوت الإنسانى. وعندهم يدعى الجميع المعرفة، من هنا فالمعرفة يجب أن تكون سرا [١]. فالأنبياء لم يكتبوا، وأقوالهم نابضة بالحياة، وياله من معرفة تافهة، أى تلك المعرفة الجامدة فى كتب صماء.

أنا جيلى مامادو كوياتيه، أنا نهاية إرث طويل. فمنذ أجيال ننقل تاريخ الملوك من الأب للابن. فالكلام نقل لى بلا تحريف وأنا أردده دون أن أحرفه، لأننى تلقيته صافيًا وخالصًا من كل كذب.

أنصتوا الآن لتاريخ سونچاتا، أى النا كآما(*) Na, Kamma، ذلك الرجل الذى كان عليه إنجاز مهمة.

ففى اللحظة التى تأهب فيها لاسترداد مملكة آبائه، كان سوماؤرو هو ملك الملوك، كان الملك الأشد بأسا لبلاد الشمس الغاربة. وكانت سوسو Sosso، تلك المدينة الحصينة، هى معقل التمائم المناهضة لكلمة الله. فمنذ زمن طويل تحدى سوماؤرو العالم بأسره. ومنذ اعتلائه عرش سوسو، هزم تسعة ملوك، استخدم رءوسهم تمائم فى غرفته المرعبة، واستخدم جلودهم كمقاعد يجلس عليها وانتعل حذاء من جلد إنسانى. فلم يكن سوماؤرو رجلا مثل بقية الرجال، فقد تكشفت له الجن، وبأسه لا يخضع للقياس لأنه ذو بأس عظيم. ومحاربوه بأعدادهم الكبيرة التى لا تحصى ولا تعد، كانوا على جانب كبير من الشجاعة لأنهم كانوا يؤمنون أن ملكهم لا يقهر.

كان سوماؤرو عبقريًا فى الشر، ولم يكن يستخدم قوته سوى فى سفك الدماء، ولم يكن لديه محرمات: كان مبلغ سروره عندما يجلد بالسوط وعلى الملأ الشيوخ المسنين المحترمين. كان قد دنس كل الأسر، وفى إمبراطوريته المترامية الأطراف، كانت هناك قرى مليئة بالشابات اللاتى اختطفهن قهرا من أسرهن دون الزواج بهن.

(*) الناكاما Na, Kamma= المبعوث للخلاص (المترجمة).

إن الشجرة التى توشك العاصفة على اقتلاعها، لا ترى الإعصار الذى تهيأ فى الأفق، فرأسها الشامخة تتصدى للرياح، حينئذ تقترب من نهايتها. من هنا كان سوماؤرو قد وصل إلى احتقار العالم قاطبة. آه! كم تعرف السلطة كيف تفسد الإنسان، ولو كان الإنسان قد ملك مثقالا Mitcal (٢) واحدا من القوة الإلهية، لكان العالم قد فنى منذ مدة طويلة. كان سوماؤرو على قناعة بألاّ يتراجع أمام أحد. وكان ابن أخته "كاسيا Kassia، المحارب "فاكولى كوروما" Koroma Fakoli هو القائد العام لجيشه، وكان لفاكولى زوجة فذة خارقة تدعى "كليّا" Keleya، كانت عرافة عظيمة، كزوجها تماما، وكانت تجيد الطهى أفضل من نساء سوماؤرو الثلاثمائة مجتمعات (٣). فاختطف سوماؤرو، كليا وحبسها لديه، وغضب فاكولى غضبا شديدا وذهب لملاقاة خاله.

قائلا له: إنك لم تستح من ارتكاب المحارم بخطف زوجتى، فمن الآن أنا فى حل من أية ارتباطات تجاهك، بل سأكون إلى جانب أعدائك سألحق بجيش المالينكيه الثائرين، وسأشن عليك الحرب. وغادر سوسو مع محاربى قبيلة كوروما.

كان ذلك بمثابة إشارة: فقد انفجرت كل الضغائن والأحقاد المكظومة منذ فترة طويلة. لقد لبى الجميع فى كل مكان نداء فاكولى: وسرعان ما جيش دانكاران تومان ملك الماندينج ومضى للحاق بفاكولى: إلا أن سوماؤرو نحىّ جانبا ابن أخته وانقض على دانكاران

تومان الذى كف عن النضال وأدبر هاربا نحو بلاد الكولا Kola وأسس مدينة "كيسيدوجو"(٤) Kissidougou فى المناطق الحرجية. وفى أثناء ذلك قام سوماؤرو وهو فى غضبه بعقاب كل المدن الثائرة من الماندينج. فهدم مدينة نيانى، وحولها إلى رماد. وصب السكان اللعنة على الملك الذى أدبر الفرار.

يتساءل البشر عن مصائرهم وسط المصائب! فبعد فرار دانكاران تومان، أعلن سوماؤرو ملكا على الماندينج انطلاقا من حقه كمنتصر. لكن أهل البلاد لم يعترفوا به، ونظمت المقاومة فى الأدغال. واستشير الأرباب حول مصير البلاد، أجمعوا على القول بأن الوريث الشرعى للعرش، والذى سينقذ الماندينج كان "الرجل ذو الاسمين"، لقد تذكر القدامى فى بلاط نيانى ابن سوجولون الرجل ذا الاسمين وليس غيره، إنه ماغان سونجاتا.

فأين يجدونه؟ لم يكن أحد يعرف أين كانت تعيش سوجولون وأبناؤها، فمنذ سبع سنوات، انقطعت أخبارهم. والمطلوب الآن، العثور عليهم. وتم تشكيل فريق وعهد إليه البحث عنهم، ومن بينهم يجب أن نذكر "كونتون مانيان" Kountoun Manian، وهو راو طاعن فى السن من بلاط ناريه ماغان، و"مانجان بيريتيه" Mandjan Bérété، شقيق ساسوما الذى لم يكن يريد اللحاق بدانكاران تومان فى فراره، و"سينبان ماراسيسيه" وهو مارابو فى البلاط، وسيرمان توريه Siriman Touré وهو مارابو آخر، وأخيرا امرأة هى "مانيوما".

وحسب ما أشارت به الأرباب، كان يتعين البحث باتجاه بلاد النهر، أي باتجاه الشرق. وغادر الباحثون عن سونچاتا الماندينج، بينما كانت الحرب تضع أوزارها بين سوسو سوماؤرو وابن أخته فاكولى كوروما.

الهوامش:

(١) هذه إحدى الصيغ التى تتردد دائما فى أفواه الرواة التقليديين. وهو ما يفسر الشح الذى ينشر به حفظة التراث التاريخى هؤلاء معارفهم. وهم يرون أن البيض جعلوا العلم مشاعا. فإذا ما عرف الأبيض شيئا ما، تعرفه كل الناس. ويتعين تغيير هذه الحالة العقلية، إذا ما أردنا يوما ما معرفة كل ما لا يريد الرواة الإفصاح عنه.

(٢) مثقال Mitcal– وحدة وزن عربية، تساوى ٤,٢٥ جرام. وفى لغة مالينكيه يستعمل هذا اللفظ لتمييز أصغر كسر من أى شىء.

(٣) هناك روايات ثابتة تقول إن كليا امرأة فاكولى، وصلت مهارتها إلى حد أنها كانت تُولم كل أفراد الجيش من طحينها، علما بأن نساء سوماؤرو الثلاثمائة لم يصلن قط إلى إطعام الفرق وسد رمقها. وقد اختطف الحسود سوماؤرو– كليا. وهذا أصل ردة فاكولى الذى انضم إلى سونچاتا.

(٤) من المعروف أنه فى منطقة الأحراش فى غينيا (جنوب كانكان Kankan) يوجد العديد من المانساريه– كيتا Mansaré- Kéita. ويقال إنهم ذرية دانكاران تومان الذين استوطنوا (أى أَتْبَعوا للماندينج) كل منطقة كيسيدوجو، وهؤلاء الكيتا يسمون Farnnaya-

Kéita. ويقال إنه عندما وصل دانكاران تومان إلى موقع كيسيدوجو، صاح قائلا، "لقد نجونا" (An bara Kissi) ومنها نسب الاسم للمدينة، ولفظ كيسى – دوجو kissi –dougou هو اشتقاق يعنى "مدينة الخلاص".

أوراق الباوباب(*)

وفى ميما، علم سونچاتا أن سوماؤرو كان قد غزا الماندينج، وأخاه دانكاران تومان كان فى حالة فرار: وعلم أيضا أن فاكولى وقف فى وجه ملك سوسو وقاومه. فى ذلك العام كانت مملكة ميما يسودها السلام. وكان نائب الملك؛ Kan- koro- sigui يعيش أوقات فراغ كبيرة، يذهب كالعادة للصيد. ومنذ وصلت أنباء الماندينج، صار سونچاتا مغتما، ومرضت سوجولون وداهمتها الشيخوخة، أما ماندينج بورى الذى بلغ الخامسة عشرة، فقد صار الآن شابا يافعا مليئا بالحيوية مثل أخيه وصديقه سونچاتا. وكبرت شقيقات جاتا، وأصبحت كولونكان الآن شابة ناضجة فى سن الزواج، وقد صارت سوجولون مسنة، فها هى كولونكان تقوم بأمور الطبخ وكثيرا ما تذهب إلى سوق المدينة بصحبة خادماتها.

وذات يوم، وحيث كانت فى السوق، لاحظت امرأة كانت تعرض أعشاب النافيولا والنيوغو، وهى توابل يجهلها أبناء ميما، الذين كانوا ينظرون للمرأة باندهاش. فاقتربت كولونكان من تلك

(*) Le Baobab الباوباب = هو شجر عريض الجذع استوائى- فى ثمره لب يؤكل.

المرأة وتعرفت على أوراق الباوباب، وغيرها من الخضروات الكثيرة التى كانت تزرعها أمها فى بستانها بنيانى.

– همهمت كولونكان: إنها أوراق باوباب والنيوغو، وقالت وهى تأخذ منها: إننى أعرفها!

– ردت المرأة: كيف تعرفينها يا أميرة؟ فأنا أعرضها من مدة فى السوق، سوق ميما ولم يرغب فيها أحد هنا.

– قالت كولونكان: أنا من الماندينج، وهناك كانت أمى تملك مزرعة، وكان أخى يذهب لإحضار أوراق الباوباب.

– قالت المرأة: ما اسم أخيك يا أميرة؟

– ردت كولونكان: سوجولون جاتا، وأخى الثانى يدعى ماندينج بورى، ولى شقيقة أيضا تسمى سوجولون جامارو. اقترب شخص منها، ومن ثم تحدث إلى سوجولون كولونكان قائلا:

– أميرتى نحن أيضا من الماندينج، نحن تجار، نذهب من مدينة إلى أخرى، أنا أعرض الكولا خذى! إننى أعطيك منها... أيتها الأميرة: هل يمكن لنا أن نقابل والدتك اليوم؟

– ردت، بالتأكيد. ستسر والدتى بالتحدث مع أناس قادمين من الماندينج. ابقوا هنا ولا تتحركوا سأحدثها فى هذا الأمر.

وعقدت كولونكان ثوبها الطويل حول خصرها، وأطلقت لساقيها العنان وأخذت تجرى نحو الجناح الملكى، دون أن تعير أدنى

اهتمام للفضيحة التى ستحدث عند رؤية شقيقة نائب الملك وهى تسرع فى العدو عبر السوق نحو الدار الملكية.

– نانا؛ قالتها كولونكان وهى تلهث موجهة حديثها إلى والدتها: لقد وجدت فى السوق أوراق الباوباب والنيوغو وأشياء أخرى عديدة. انظرى! إنهم تجار من الماندينج الذين يعرضونها. إنهم يرغبون فى رؤيتك.

– تناولت سوجولون بيدها أوراق الباوباب والنيوغو، وقربتها من أنفها كمن تريد أن تمتص منها كل رائحتها، وفتحت عينيها مندهشة ونظرت إلى ابنتها قائلة:

– أتقولين إنهم أتوا من الماندينج؟ أسرعى إلى السوق وأخبريهم أننى أنتظرهم. أسرعى يا ابنتى!

وبقيت سوجولون بمفردها، وظلت تقلب التوابل الثمينة بيدها، عندها سمعت سونچاتا وماندينج بورى عائدين من القنص.

– قال ماندينج بورى: سلاما يا أمى.. لقد عدنا!

– وقال سونچاتا: سلاما يا أمى.. لقد أحضرت لك صيدا!

– ردت سوجولون: ادخلا، واجلسا! وأشارت إلى ما تمسكه بيدها.

– قال سونچاتا: إنه النيوغو.. أين وجدته؟ فالناس هنا لا تزرعه أبدًا.

– قالت: نعم، صحيح، إنهم تجار من الماندينج، يعرضونه فى السوق، وقد ذهبت كولونكان فى البحث عنهم، لأنهم يرغبون فى رؤيتى، سنحظى بأخبار الماندينج.

وسرعان ما ظهرت كولونكان، يتبعها أربعة رجال وامرأة. وفى الحال تعرفت سوجولون على أعيان بلاط زوجها. بدأت السلامات والتحيات، كانوا يحيون بعضهم بعضا بكل الأدب والتلطف الذى يعرفه ويتطلبه ود أبناء الماندينج. وقالت سوجولون:

– إليكم أبنائى، لقد كبروا بعيدا عن مسقط رأسهم. والآن حدثونا عن الماندينج. تبادل المسافرون النظرات سريعا، ثم بدأ مانجان بيريتيه شقيق ساسوما الحديث قائلا: "أشكر الله العلى القدير لأننا هنا أمام سوجولون وأبنائها، أشكر الله لأن سفرنا لم يكن بلا فائدة. لقد غادرنا بلاد الماندينج منذ شهرين، ذهبنا من مدينة ملكية إلى الأخرى، نقدم أنفسنا كتجار. كانت مانيوما تعرض خضروات الماندينج فى الأسواق: ففى بلاد الشرق هذه لا يعرف الناس هذه الخضروات، أما فى ميما، فقد كشفت خطتنا عن صوابها: فالشخص الذى اشترى النيوغو أمكنه إعلامنا عن مصيرك، كما أن هذا الشخص وحتى تكتمل السعادة، اتفق أن يكون كولونكان.

"للأسف! أحمل إليكم أخبارا تعيسة! إنها مهمتى: لقد قام سوماؤرو كانتيه ملك سوسو ذو البأس الشديد، ينشر الموت والخراب فى الماندينج، وهرب الملك دانكاران تومان. والماندينج بلا رئيس،

لكن الحرب لم تنته، فالرجال الشجعان فى الأدغال، يخوضون حربا على العدو لا تعرف الكلل. كما يقود فاكولى كوروما، وهو ابن أخت ملك سوسو معركة ضارية بلا هوادة، ضد خاله الذى يرتكب المحرمات والذى اختطف منه زوجته. لقد سألنا الجان، وأجابونا أن ابن سوجولون هو الوحيد الذى يمكنه أن يخلص الماندينج. لقد أنقذت الماندينج لأننا وجدناك يا سونچاتا.

"ياماغان سونچاتا. أحييك يا ملك الماندينج! إن عرش آبائك ينتظرك، وأيا كانت المنزلة التى تشغلها هنا، دع كل هذا المجد، واذهب لاسترداد وطنك! إن الشجعان ينتظرونك! اذهب لإقامة السلطة الشرعية فى الماندينج؛ فالأمهات الباكيات لا يتضرعن إلا باسمك، وينتظرك الملوك الذين تألبوا عليه، فاسمك وحده يلهمهم الثقة، يا ابن سوجولون لقد أزفت ساعتك، سيتحقق كلام العجوز نيانكومان دووا، لأنك العملاق الذى سيصرع سوماؤرو.

خيم سكون عميق على غرفة سوجولون، بعد هذا الكلام، وظلت صامتة تغض الطرف، أما كولونكان وماندينج بورى فقد كانت عيناهما تحدقان فى سونچاتا.

– قال سونچاتا: حسنا! لم يعد وقت للكلام. سأذهب فى طلب إجازتى من الملك وسنعود فى التو، يا ماندينج بورى، كرس اهتمامك بمبعوثى الماندينج، سيعود الملك هذا المساء، وسنأخذ طريقنا للعودة فى الصباح.

– وقف سونچاتا، ووقف كل المبعوثين، وخرج جاتا. كان ملكا بالفعل.

– عاد الملك إلى ميما عند الغسق، كان قد ذهب لقضاء النهار فى أحد مقار إقامته فى الضواحى. لم يكن نائب الملك فى استقبال الملك، لم يكن أحد يعرف أين كان يوجد، فقد عاد فى المساء وقبل أن يخلد للنوم ذهب لرؤية سوجولون. كانت تعانى من حمى، وترتعش تحت الأغطية، وبصوت ضعيف تمنت لابنها ليلة سعيدة. ولما انفرد سونچاتا فى غرفته اتجه نحو الشرق قائلا هذه الكلمات:

– اللهم يا قادر على كل شىء! لقد حان وقت العمل، فإذا كان يتعين علىّ أن أنجح فى استعادة الماندينج، اللهم هيئ لى أن أوارى أمى التراب هنا فى سلام، ثم أخذه النعاس.

وفى الصباح، أسلمت سوجولون كيجو الروح، تلك المرأة العجل. وكان كل بلاط ميما فى حالة من الحزن والحداد، لأن أم نائب الملك ماتت. وذهب سونچاتا للقاء الملك الذى قدم له تعازيه، وقال للملك:

– أيها الملك! لقد أحطتنى بكريم الضيافة فى بلاطك حيث كنتُ بلا مأوى، وتحت أوامرك بدأت أولى خطواتى، إننى أشكرك بقدر كرمك. لقد ماتت أمى، وأنا الآن رجل ويتوجب علىّ أن أعود إلى الماندينج، لأطالب بمملكة آبائى. أيها الملك، أعيد إليك المهام

التى كنت اضطلع بها، وألتمس إجازتى، وقبل أن أغادر، اسمح لى أن أدفن والدتى المسكينة هنا.

أزعج هذا الكلام الملك، فلم يكن يخطر على باله يوما أن ابن سوجولون يقدر على التخلى عنه.

وقال متسائلا: عمّ يبحث عند الماندينج؟ ألم يكن يعيش سعيدا فى ميما ومحترما من الجميع؟ أليس هو بالفعل وريث عرش ميما" يا له من جاحد! كان الملك يظن ذلك، فابن الغير دائما أبدا ابن الغير.

– كافر بالنعمة؛ قالها الملك! ولأن الأمر كذلك، اذهب، اخرج من مملكتى، وستحمل رفات والدتك، ولن تدفنها فى ميما!

وبعد برهة، استكمل حديثه:

– إذن، فإذا أردت أن تدفن والدتك، عليك أن تدفع لى ثمن الأرض التى سترقد عليها.

– أجاب سونچاتا: سأدفع لاحقا، سأدفع بعدما أصل الماندينج.

– قال الملك: لا. ادفع الآن، وإلاّ ستأخذ معك رفات والدتك.

عند ذلك وقف ابن سوجولون وخرج، ورجع فى غضون بضع دقائق، وقد أحضر للملك سلة مليئة ببقايا أوانى خزفية، وريش طيور، وقطع من القش وريش الحجل وقال:

– أيها الملك: هذا ثمن الأرض.

– قال الملك: أتهزأ يا سونچاتا، خذ سلتك وما بها من قمامة، فليس هذا ثمن الأرض، ماذا تعنى؟

عندئذ قال شيخ عربى كان مستشارا للملك:

أيها الملك أعط لهذا الشباب الأرض التى يجب أن تمدد أمه عليها إن ما يحمله له دلالته: إذا رفضت الأرض، سيشن عليك الحرب. وهذه الأوانى المهشمة وهذا الريش يعنيان أنه سيدمر مدينتك، ولن تتعرف منها إلا على هذه الأوانى المهشمة وسيجعلها خرابا حيث ستجئ الغربان والطيور لتمرح. أعطه الأرض لأنه سيستعيد مملكته، وسيسدد لك، ستكون أسرته وأسرتك حليفتين للأبد.

فهم الملك، وأعطاه الأرض. وأقيم لسوجولون آخر تكريم فى موكب ملكى.

العودة

لكل إنسان بلده وإذا قيل إن مصيرك يتعين أن يتحقق فى ذاك البلد، فلا يقدر الناس على شىء دونه. لم يستطع مانسا تونكارا حجز سونچاتا، لأن مصير ابن سوجولون، كان قد ارتبط بمصير الماندينج. كما لم تستطع غيرة زوجة أب شرسة وخبيثة أن تعدل لحظة واحدة فى مجرى المصير العظيم.

ليست حياة الثعبان، عدو الإنسان، طويلة، غير أن الثعبان، لأنه يعيش مختبئا، سيموت مسنا دون شك. إن جاتا الآن، كان ذا قامة قادرة على مواجهة أعدائه. ففى سن الثامنة عشرة، كان له مهابة الأسد وقوة العجل، أما صوته فكان له تأثير وسطوة، عيناه جمر متوهج، أما ذراعاه فكانتا من حديد: كان رجل سلطة.

منح موسى تونكارا، ملك ميما، نصف جيشه لسونچاتا، وأكثرهم مهارة، وقد أهلّوا أنفسهم للحاق بسونچاتا فى مغامرته الكبرى. فسلاح فرسان "ميما"، الذى شكله بنفسه، يشكل درعه الحديدى. خرج سونچاتا من المدينة مرتديا على الطريقة الإسلامية فى ميما، على رأس جيشه الصغير، لكنه المرعب، يصحبه الشعب عن بكرة أبيه بأمنياته، وكان محفوفا بخمسة من رجال الدين من الماندينج. وامتطى ماندينج بورى وهو يزهو فخرا إلى جانب أخيه.

وشكل فرسان "مماكا" درعا حديديا خلف جاتا. وأخذت القوات اتجاه واجادو، ولم يكن جاتا يملك قوات كافية للمواجهة المباشرة مع سوماؤرو، لذا نصحه ملك ميما بالذهاب إلى واجادو ليأخذ نصف رجال الملك سومالا سيسيه، وكان قد أوفد رسولا على عجل إلى هناك، حتى إن ملك واجادو ذهب بنفسه للقاء سونجاتا مع قواته، فقدم إلى ابن سوجولون نصف سلاح فرسانه، وبارك الأسلحة. وهنا قال ماندينج بورى لأخيه:

- جاتا! أتعتقد أننا نقدر على مواجهة سوماؤرو الآن؟

- قال سونجاتا: مهما كانت الغابة صغيرة فإنك ستجد فيها دائما ما يكفى من الألياف لتوثيق شخص. العدد لا يهم، فالقيمة هى ما يعول عليه، فبسلاح فرسانى سأشق طريقى حتى الماندينج.

أصدر جاتا أوامره: سنتجه صوب الجنوب، لنلتف حول مملكة سوماؤرو، وهدفنا الأول هو بلوغ مدينة طابون، تلك المدينة ذات الباب الحديدى والتى تتوسط الجبال. وكان سونجاتا قد وعد فران كامارا أن يمر على طابون قبل عودته إلى الماندينج، وكان يأمل أن يجد صديق طفولته وقد صار ملكا.

كان السير حثيثا وعلى مراحل وكان المارابو سينبان مارا سيسيه وماندان بيرتيه يقصان على جاتا تاريخ الملك ذى القرنين والكثير غيره من الأبطال، لكن جاتا كان يفضل من بينهم ذا القرنين،

أى ملك الذهب والفضة، الذى شق العالم من الغرب إلى الشرق، وكان يريد أن يتفوق على نموذجه عبر امتداد أراضيه وأموال خزائنه.

وفى هذه الأثناء، كان سوماؤرو كانتيه، ذلك الذى كان عرّافًا عظيما، كان قد علم أن ابن سوجولون بدأ المسيرة وأنه قدم يطالب بـ الماندينج. فقد كانت الأرباب قالت له أن يستبق الشر ويهاجم سونچاتا، لكن الثروة تعمى الإنسان. وكرس سوماؤرو نفسه لمحاربة فاكولى، ابن أخته المتمرد الذى وقف فى وجهه. وقبل أن يشن الحرب عليه، كان اسم جاتا قد عرف فى كل المملكة. فهؤلاء الذين على الجبهة الغربية والذين رأوا جيشه ينزل ناحية الجنوب، أثاروا ضجيجا فوق العادة. أما فران كامارا، صديق سونچاتا الذى كان قد اعتلى العرش ذاك العام، فقد ثار بدوره ضد سوماؤرو وتمرد عليه. واستبدل فران كامارا سياسة الحكمة لملك طابون العجوز، بأخرى داعية للحرب. وكان كامارا قد أطلق دعوته للحرب معتزّا بقواته، وخاصة أنه كان مدفوعا بالوصول القريب لسونچاتا، الذى صار يدعى حاليا "طابون وانا" (رجل طابون المرعب). أطلق كامارا نداءه لكل الحدادين والجالونكيه ساكنى الجبل.

أرسل سوماؤرو مفرزّة مع ابنه سوسو بلاّ، كى يقيم العقبات فى وجه سونچاتا، ويسد الطريق إلى طابون أمامه. ويكاد سوسو بلاّ أن يكون فى نفس سنوات عمر ابن سوجولون، وفورا وضع قواته فى مدخل الجبل، لتعترض تقدم جاتا نحو طابون.

وفى المساء وبعد يوم طويل من السير، وصل سونچاتا أمام الوادى الكبير الذى يؤدى إلى طابون وكان يعج بالرجال، فقد كان سوسو بلاّ قد نظم رجاله فى كل الوادى، حيث استقر البعض منهم على المرتفعات التى تطل على المدخل. وحينما رأى سونچاتا التشكيلات القتالية لرجال سوسو بلاّ، استدار ناحية رئيس أركانه ضاحكا.

- لماذا تضحك، يا أخى، إنك ترى جيدا أن الطريق قد سد!

- نعم، فلبس جنود المشاة هم من يستطيعون إيقافى فى مسيرتى نحو الماندينج. توقفت القوات، فقد كان من رأى كل قادة الحرب الانتظار لليوم التالى لخوض المعركة، لأنهم قالوا إن الجنود متعبون.

- المعركة لن تكون طويلة، سيكون أمام الجنود الوقت للراحة. يجب ألاّ ندع الوقت لسوماؤرو لمهاجمة طابون.

كان سونچاتا عنيفا لا يلين: فأصدر الأوامر، وبدأت طبول تام تام تدق لتعلن الحرب. وامتطى صهوة جواده البهى، يستعرض فخرا أمام قواته، وأمن مؤخرة الجيش، الذى يتشكل من جزء من فرسان واجادو، واندفع نحو أخيه الشاب ماندينج بورى، الذى كان قد استل سيفه مطلقا صيحة الحرب.

ذُهل السوسو من هذا الهجوم المباغت، فالجميع كان يعتقد أن المعركة ستقع فى اليوم التالى. فالبرق يخترق السماء بسرعة أقل،

والصواعق تثير الرعب بوتيرة أقل، والفيضان باغت بدرجة أقل، حتى إن سونچاتا انقض على سوسو - بلاّ وحداديه، وفى لحظة واحدة كان ابن سوجولون وسط السوسو، مثل أسد فى حظيرة الغنم، والسوسو القتلى تحت سنابك خيله الجامحة يتصايحون، وحينما استدار ناحية اليمين كان حدادو سوماؤرو يتساقطون بالعشرات، أما إذا استدار ناحية اليسار، كان سيفه يوقع الرءوس، مثلما تهز شجرة لتسقط ثمارها الناضجة. لقد ارتكب فرسان ميما مجزرة بشعة. كانت الحراب الطويلة تخترق أجسادهم كسكين تغرزها فى ثمرة الباباى. كان جاتا الذى يبادر دائما بالهجوم يبحث عن سوسو بلاّ، فلمحه، واندفع كأسد نحو ابن سوماؤرو شاهرا سيفه، ومع أن ذراعه قد وهن، فى هذه اللحظة، تدخل محارب من السوسو ما بين جاتا وسوسو بلاّ، فانشق إلى اثنين مثل ثمرة الكرنيب، ولم ينتظر سوسو بلاّ واختفى وسط حداديه. وحينما رأى السوسو قائدهم فى هذه الحالة أدبروا الفرار، وسادت حالة من التشتت الرهيب. وقبل أن تختفى الشمس خلف الجبال، لم يكن قد بقى فى الوادى سوى جاتا ورجاله. أما ماندينج بورى الذى كان يسهر على الرجال الذين نصبهم على المرتفعات، والذى يرى أن أخيه قد انتصر، فقد دفع ببعض الفرسان إلى المرتفعات لإزاحة السوسو، وظل يتعقبهم حتى سقوط الليل وأسر العديد منهم.

وصل "طابون وانا" متأخرا كثيرا، كان ابن سوجولون قد حاز على النصر فعلا، وشكل اللقاء بين الجيشين الصديقين مناسبة

للاحتفال بالدق على طبول "تام– تام" أثناء الليل، فى الوادى نفسه حيث كان هزم السوسو. وجلب "طابون وانا" فران كامارا مؤنا غذائية وافرة لجيش جاتا. وبعد أن رقصوا طوال الليل، عند الفجر دخل المنتصرون إلى طابون Tabon الحصينة مصحوبين بتهليل وابتهاج النسوة اللاتى صعدن إلى المرتفعات.

انتشر نبأ معركة طابون فى سهول الماندينج مثل انتشار النار فى الهشيم. وشاع أن سوماؤرو لم يكن فى المعركة وأن قواته تقهقرت أمام سونجاتا. وكان هذا كافيا لمنح الأمل لكل شعوب الماندينج، وأدرك سوماؤرو أن عليه من الآن أن يعمل حسابا لهذا الشاب. وعلم سوماؤرو بنبوءات مستقبل الماندينج، لكنه كان لا يزال يثق فى نفسه ثقة عمياء. ولما عاد سوسو بلاّ مع من استطاع إنقاذهم من معركة طابون، بادر والده بالقول:

– يا والدى! إنه لمن أسوأ الأمور ألا يقدر أحد على مواجهة أسد.

– قال سوماؤرو، كف عن الكلام! يا ابن الشقاء، إنك ترتعش أمام صبى فى مثل سنك! غير أن كلام بلاّ قد أثار بشدة مشاعر سوماؤرو، وصمم على السير إلى طابون مع أكبر عدد من قواته.

كان ابن سوجولون قد وضع خطة تتمثل فى: ضرب سوماؤرو، تدمير سوسو، والعودة منتصرا إلى نيانى، إنه يتصرف

الآن بخمسة فيالق من الجيش: الفرسان ومشاة ميما، وآخـرين مـن واجادو، وثلاث فرق من جيش "طابون وانا" - فران كامـارا فكـان يتعين عليه أن يمضى بأقصى سرعة فى شن الهجوم.

وقف سوماؤرو فى مواجهة سونچاتا، ووقع اللقاء فى ناجوبوريا فى البوريه، وكعادته أراد ابن سوجولون أن يشن المعركة فى التو، بينما كان سوماؤرو يفكر فى سحب سونچاتا إلى السهل، لكن جاتا لم يترك له الوقت لتنفيذ ذلك. جهز ملك سوسو، الذى أجبر على خوض المعركة، رجاله فى خلال وادى نا جوبوريا الضيق، بحيث يشغل جيشه المنحدرات من الميسرة والميمنة؛ بينما اعتمد سونچاتا تدابير قتالية فريدة، إذ شكل مربعا شديد الإحكام، بحيث وضع فى صفوفه الأمامية رجال سلاح الفرسان، أما رماة الأقواس من واجادو وطابون فقد وضعهم فى الخلف. وكان سوماؤرو يقف على أحد التلال التى تشرف على الوادى، وقد عرفوه من قامته الطويلة وخوذته التى انتصب عليها قرنان، وتحت هذه الشمس اللافحة دقت الطبول، وردت عليها التام التام والبولون[1] من هنا وهناك، ودخلت الشجاعة إلى قلب الجنود. وفى عدْو وركض هجم سونچاتا بعنف، ولم يلبث السهل أن توارى خلف سحب من الغبار الأحمر، الذى أثارته آلاف الأقدام والسنابك. ودون استسلام أوقف جنود سوماؤرو هذه الموجة من الهجوم.

كان سوماؤرو كانتيه ينظر من أعلى تلاله، كغريب عن المعركة. وحمى وطيس المعركة بين سونچاتا وملك طابون. ولوحظ

جاتا من بعيد بعمامته البيضاء، واستطاع سوماؤرو رؤية الثغرة التى فتحها وسط قواته. وكاد المركز أن يستسلم تحت الوطأة الساحقة لجاتا، فأصدر سوماؤرو إشارة، فتحرك الحدادون من التلال إلى أعماق الوادى لتطويق سونچاتا. آنذاك ودون أن يصدر جاتا- وهو فى غمرة القتال- أى أمر، تمدد المربع طولا، متحولا إلى مستطيل كبير، كان كل شيء متوقعا. كانت الحركة أشد سرعة حتى إن رجال سوماؤرو كانوا واقفين كالبلهاء ولم يستطيعوا استعمال أسلحتهم، وخلف جاتا كان رماة النبال من طابون وواجادو يجثون على الأرض، يقذفون بسهامهم إلى السماء التى تعاود السقوط بكثافة مثل وابل يتساقط من جديد فوق جنود سوماؤرو. وصعد صف جاتا إلى التلال للالتحام، كمثل قطعة من المطاط التى تسحب. ولمح جاتا، سوسو- بلاً وانقض عليه، ولكن هذا الأخير اختفى. وأطلق محاربو ابن العجل صيحه النصر، وهرع سوماؤرو إليهم، فوجوده وسط الجيش، منح أبناء سوسو الشجاعة، ورآه سونچاتا فأراد أن يفتح لنفسه طريقا ليصل إليه، وضرب يمنه ويسره، وصار يطأ بقدميه، والسنابك القاتلة لجواده[٢] "Dafféké" قد غرست فى صدور المحاربين السوسو. ولما كان سوماؤرو الآن على مرمى سهمه، همز سونچاتا فرسه، وأطلق سهمه، فخرج وهو يثير صفيرا، وارتد السهم إلى صدر سوماؤرو كأنه اتجه إلى صخرة ثم سقط. وأعاد ابن سوجولون إطلاق سهمه، وبحركة من سوماؤرو أمسك السهم وهو يطير ورده إلى سونچاتا كمن يريد أن يقول له:

"انظر، فلا يستطيع أحد أن يهزمنى".

انتزع سونچاتا – وهو فى غاية الغضب – نصله ورأسه مطرق واتجه نحو سوماؤرو، إلا أنه عندما رفع يده لضرب عدوه لاحظ اختفاء سوماؤرو، وقال مانديتج بورى الذى كان إلى جانبه وهو يشير إلى التلال:

– انظر يا أخى! عندئذ رأى سونچاتا سوماؤرو على التل يرتدى ثوبا أسود ويمتطى جواده! فكيف حدث ذلك؟ وهو الذى لم يكن سوى على بعد خطوتين فقط من سونچاتا، بأى قوة نقل إلى التل! وتوقف ابن سوجولون عن القتال للنظر فى أمر ملك سوسو. كانت الشمس فى البكور، وكان جنود سوماؤرو يرتعدون، رغم أن جاتا لم يعط أوامره بتعقب العدو: وفجأة اختفى سوماؤرو.

كيف نهزم رجلا قادرًا على الاختفاء والظهور ثانية أين ووقتما يشاء؟ كيف نصيب محصنا ضد الحديد والسلاح؟ تلك كانت الأسئلة التى تدور فى خلد ابن سوجولون، الذى كان قد سمع قصصا كثيرة عن سوسو سوماؤرو، لكنه لم يعرها أى اهتمام. ألم يُقَل إن ملك سوسو يمكنه أن يأخذ تسعة وستين شكلا مختلفا ليتخفى عن أعدائه. ويرى البعض أنه يستطيع أن يتحول إلى ذبابة، وهو فى أوج المعركة، ويأتى ليقلق خصمه، كما يستطيع أن يذوب مع الهواء حين يطوقه أعداؤه من مكان قريب وغير ذلك كثير.

لقد كشفت معركة نوجوبوريا لجاتا بوضوح أنه لكى يقهر ملك سوسو، تعوزه أسلحة أخرى.

كان جاتا فى مساء معركة نوجوبوريا سيد المكان، لكنه كان متكدرًا. أصدر أوامره بترتيب المعسكر، وابتعد عن ميدان المعركة المملوء بصيحات الألم من الجرحى. وكان كل من ماندينج بورى وطابون يرمقانه بنظراتهما، لقد اتجه جاتا ناحية التل، وهناك كان قد رأى سوماؤرو، ذلك بعد اختفائه المعجز وهو فى وسط قواته. ومن أعلى التل رأى كتلة جيش سوماؤرو وهى تبتعد وسط سحابة من الغبار.

كيف هرب منى؟ لماذا لم يُصب بجراح من سهمى ونصلى؟ كان يتساءل بينه وبين نفسه. من هو الجان الذى يحمى سوماؤرو؟ ما سر قوته؟؟

ترجل من فوق حصانه، وجمع حفنه من التربة التى كان قد وطئها فرس سوماؤرو. كان الليل قد اكتمل، لم تكن قرية نوجوبوريا بعيدة، وخرج الجالونكيه فى جمهرة لتحية سونچاتا ورجاله، وكانت النار قد أوقدت فى المخيمات حيث بدأ الجند فى إعداد الطعام، لكن أشد ما كان سرورهم عندما لمحوا ذلك الموكب الطويل لبنات نوجوبوريا اللاتى تحملن على رؤوسهن أوانى الأرز الضخمة، وغنى الجنود أغنية جماعية للشابات، وكان رئيس القرية والأعيان يسيرون فى الخلف.

هبط جاتا من على التلة واستقبل زعيم نوجوبوريا الجالونكيه، لقد كان يعمل تابعًا "لطابون وانا". وكان الجنود يرون أنه كان يوم نصر لهم، لأن سوماؤرو فر هاربا. لقد تحولت طبول تام - تام الحرب إلى تام - تام الفرح. وترك جاتا رجاله يحتفلون بما أسموه نصرا، لكنه ظل وحيدا يفكر فى خيمته: "فى حياة كل إنسان، هناك لحظة يسيطر فيها القلق عليه، والإنسان يتساءل حول مصيره، وقدره". لكن فى هذا المساء لم يكن ذلك هو القلق الذى استبد بجاتا، بل كان يفكر فى القوى التى يتعين عليه العمل معها من أجل الوصول إلى سوسو- سوماؤرو. ولم يغمض له جفن طوال الليل. وفى الصباح الباكر استيقظ المعسكر، وفى الطريق، أخبر الفلاحون جاتا أن سوماؤرو ورجاله يسيرون حثيثا، فأمر جاتا رجاله بالسير دون إبطاء، وفى المساء توقف الجيش لتناول الطعام والراحة. كان هذا بالقرب من قرية كانكينيه kankigné. وأعد الرجال المعسكر وسط السهل، بينما الحراس أخذوا أماكنهم على المرتفعات.

وكالعادة تجمع الرجال وفق قبائلهم وانهمكوا فى إعداد الطعام. كانت خيمة سونچاتا تتوسط المعسكر، تحيط بها أكواخ مؤقتة أقيمت على عجل، بناها فرسان ميما.

وفجأة سمع صوت آلات الإنذار، ولم يكن لدى الجند الوقت لحمل أسلحتهم لأن المعسكر كان مطوقا بالأعداء، الذين اندفعوا وسط الظلام.

لقد اعتاد رجال ميما على هذه الهجمات المباغتة، ففى المعسكر لم يكونوا قط يرخون مقود الخيول، كما كان يتوجب على كل جماعة عرقية أن تدافع عن نفسها، لأن المعسكر لم يشكل كتلة واحدة فقد انتشر الأعداء بكثرة مثل الجراد.

أما جاتا وفرسان ميما، الذين لم يتمكن أحد من تطويقهم، فقد خفوا إلى نجدة "طابون وانا"، الذى بدا وقد هزم تحت هذا العدد. وفى الليل البهيم، يعلم الله وحده كيف يسلك الناس، لقد كسر ابن سوجولون الحلقة التى كانت تمسك بخناق "طابون وانا". وسرعان ما تمالك رماة السهام من واجادو أنفسهم، فأطلقوا القذائف إلى السماء والسهام المشتعلة التى كانت تسقط ثانية على العدو. وفجأة خيم الهلع والخوف، حيث تتحطم الشذرات المشتعلة على ظهور جنود سوماؤرو العارية وصرخات الألم الموجعة ترتفع إلى عنان السماء. وبدأ السوسو انسحابا متعجلا، مخلفين وراءهم العديد من الأسرى فى أيدى رجال سوجولون -جاتا، عاهدين إلى طابون إعادة تجميع الرجال. فلاحق الأعداء بفرسانه حتى ما وراء قرية كانكينيه. ولما عاد كان القتال قد انتهى. إن الهجوم الليلى للسوسو، كان قد سبب هلعا أكثر منه خسائر حقيقية، وقد وجد على الأرض بالقرب من خيمة "طابون وانا"، جماجم مفتتة، لأن ملك طابون لم يكن يصيب رجلا مرتين. لم تكن معركة كانكينيه نصرا مؤزرا، بل أوهنت عزم السوسو. وعليه تزايد الخوف فى صفوف جاتا، لذا غنى الرواة[٣] "أن

معركة كانكينييه كانت رهيبة، وكان الرجال فيها أقل احترامًــا مــن العبيد".

الهوامش:

(١) Bolons– هى أداة بأوتار تشبه الكورا Kora، لكنها لا تضم سوى ٣ أوتار بينما الكورا فيها ٢٧ وترا. إن موسيقى البولون هى موسيقى للحرب، بينما الـ Kora هى أداة لموسيقى الغرفة.

(٢) Daffeké اسم تفخيم لتمييز الفرس الجميل.

(٣) Kankigné – أوردت رواية ديوما Dioma أن معركة كانكينييه كنصف هزيمة لسونچاتا. والنشيد يعنى:

"أن المعركة كانت رهيبة وكان الرجال فيها أقل احترامًا من العبيد".

أسماء الأبطال

أساء سوماؤرو إدارة الهجوم المباغت على كانكينيه، فلم ينجح إلا فى زيادة غضب سونچاتا. الذى أهلك كل مؤخرة جيش سوسو. ولحق سوماؤرو بسوسو لإعادة إعداد قواته، بينما فتحت القرى فى كل مكان أبوابها لسونچاتا، وجنّد ابن سوجولون فى كل هذه القرى جنودا من المشاة (السوفا).

وكما يسبق الضوء الشمس، فبالمثل انتشر نصر جاتا الذى عبر الجبال إلى كل سهول جوليبا.

وتجمع كل ملوك بلاد السافانا الثائرين، فى بلدة سيبى Sibi تحت إمرة كامانجان. وهو صديق طفولة سونچاتا، وقد أصبح هو أيضا ملكا على سيبى. وكان كامانجان و "طابون وانا" أبناء عمومة: فالأول كان ملك الكامارا لدالكيمبون Dalikimbon، والثانى ملكا لحدادى كامارا يقال إنهم سينيكيمبون Sinikimbon. وهكذا كان ثلاثى نيانى قد اهتدى إلى طريقه. أما فاكولى ابن شقيقة سوماؤرو، وكان قد ذهب حتى بلغ الجنوب لتجنيد المقاتلين من المشاة، وقد بيت النية على الانتقام من خاله واستعادة زوجته كيليا، التى سميت "المرأة ذات الثلاثمائة وثلاثٍ وثلاثين آنية أرز".

كان سونچاتا قد دخل بلاد السهول بلاد جوباDjobba شديد البأس، وأصبح كل شىء يشير إلى أن الماندينج العتيقة أصبحت

قريبة، حتى الأشجار – على مرأى البصر– كانت من أشجار بلاد الماندينج.

كان كل الحلفاء على موعد فى سهل سيبى الكبير، وكان كل أطفال السافانا هناك، حول مليكهم، وأيضا كل أبناء الماندينج البواسل فى انتظار ذلك الذى وعدهم القدر، والبيـــارق [1] ترفرف من كل الألوان على المشاة الموزعين في قبائل.

بمن أبدأ؟ وبمن أنتهى؟

سأبدأ بسيبيرا كومان كوناتيه، وهو خال سونچاتا الذى كان هنالك، وهو الجد الأول لأبناء بلد تورون Toron، وتشكل قواته التى تتسلح بالرماح سياجا متراصا كثيفا حوله.

سأذكر أيضا بفاونى كونديه Faony Kondé أو فاونى ديارا Faony Diarra ملك بلاد "دو"، التى أتت منها سوجولون. لقد كان الأمر قد انتهى بالخال أن تقدم لمواجهة ابن أخته. وكان فاونى ملك "دو" و "وكرى" محاطا بجنوده المدججين بالسهام القاتلة ويشكلون جدارا لا يمكن اختراقه حول علمه.

– سأذكر أيضا مانسا تراوريه ملك قبيلة التراوريه. ومانسا تراوريه هو الملك ذو البصيرة الذى كان ملكا فى سيبى. وهو يرى ما يحدث خفية مثلما يرى الآخرون ما يجرى أمامهم، وكان يتزاحم حوله جنود من المشاة، ورماة السهام المهرة، وعلى أكتافهم النياشين.

– أما أنت يا كامانجان، لن أقدر أن أنساك بين هؤلاء الذين أشدت بهم، أنت أب الكامارا داليكيمبون.

فالكامارا المسلحون بسهام طويلة ينصبون حول كامانجان رماحهم المتوعدة المهددة.

وأخيرا كان هناك كل أبناء الماندينج، كل أولئك الذين يتحدثون لغة " إنكو" "N'ko"، (٢) أى كل أولئك الذين يتكلمون اللغة الفصحى للماندينج، كانوا جميعا حاضرين فى سيبى.

ولما ظهر ابن العجل وجيشه اختلطت دقات الطبول والأبواق والتام– تام مع أصوات الرواة. كان ابن سوجولون محاطًا بفرسانه الذين يتميزون بالجرأة. وكان فرسه يتقدم بخطى راقصة.. كانت النظرات تحدق فى طفل الماندينج، الذى أشرق مجدا وجمالا. ولما صار فى مدى الصوت، أصدر كامانجان إيماءة: فسكتت الطبول والتام تام والأصوات، وتقدم ملك سيبى، خارجا من بين الصفوف نحو سونچاتا وصاح:

– يا ماغان سونچاتا، ابن سوجولون، ابن ناريه ماغان: الماندينج عن بكرة أبيها تنتظر السلام عليك، أنا كامانجان كامارا، ملك سيبى!

قال ماجان سونچاتا رافعا ذراعه:

– أحييكم جميعا، يا أبناء الماندينج.. أحييك يا كامانجان، ها أنا قد عدتُ ومادمت على قيد الحياة، أتنفس، فلن تكون الماندينج مستعبدة. فالموت أهون من العبودية. سنحيا أحرارا فأجدادنا عاشوا أحرارا، سأنتقم للعار الذى عانت منه الماندينج!

وهنا خرجت صيحة الفرح من آلاف الصدور التى ملأت عنان السماء، وهدرت التام تام والطبول بينما الرواة ينشدون لحنا على قوس بلاَّ فاسيكيه.

وهكذا التقى سوجولون جاتا بأبناء الماندينج فى سيبى.

الهوامش:

(١) كلمة Bandari – البندارى يراد بها العلم، أى العلم الصغير وهذه الكلمة مستعارة من العربية مثل كلمة راية، التى تدل على العلم الذى كان يحمله المارابو الكبار فى سالف الزمان فى تنقلاتهم وحاليا يرفع رؤساء المناطق الراية فوق دورهم.

(٢) كلمة N` ko– الإنكو معناها "أقول" بالمالينكية– والمالينكى يحب أن يتميز عن غيره من الشعوب بدءا من لغته، فلغة الماندينج بالنسبة إليه "لغة واضحة (Kangbé) وفى غاية السمو والوضوح. فكل هؤلاء الذين يتحدثون الإنكو هم فى الأساس مالينكيون.

نانا تريبان وبلاّ فاسيكيه

توقف سونچاتا وجيشه الباسل لبضعة أيام فى سيبى، كان الطريق للماندينج سالكا، لكن سوماؤرو لم يكن قد هُزم. فقد أعد ملك سوسو جيشا قويا، يصل تعداد جنوده من المشاة بالآلاف، كان قد جنّد وحدات عسكرية من كل البلاد التى سيطر عليها واستعد للهجوم من جديد على الماندينج.

وكان سوجولون جاتا قد أعد ترتيباته بدقة فى سيبى، فلديه الآن ما يكفى من الجنود المشاة لمواجهة سوماؤرو فى سهل مكشوف، فلم يكن يقصد أن يمتلك الكثير من المحاربين. ولكى يهزم سوماؤرو يتوجب بداية تدمير قواه السحرية. وقرر سونچاتا. فى سيبى أن يأخذ مشورة الأرباب. والأكثر شهرة بين الماندينج هناك.

وحسب نصيحتهم، كان يتعين على جاتا أن يضحى بمائة ثور أبيض ومائة حمل أبيض ومائة ديك أبيض. ووسط هذه المجازر أتى من أعلن لسونچاتا أن شقيقته نانا تريبان، وبلاّفاسيكيه واللذين أمكنهما الهرب من سوسو، قد وصلا. وهنا قال سونچاتا لـ "طابون وانّا": "إذا كانت شقيقتى وبلاّ فاسيكيه قد استطاعا الهرب من سوسو، فقد خسر سوماؤرو المعركة".

عاد سونچاتا إلى سيبى تاركا مكان الأضحيات والتقى شقيقته وراويه:

- قالت نانا تريبان، أحبيك يا أخى!

- أجاب: أحبيك يا شقيقتى!

- قال بلاّ فاسيكيه: أحبيك يا سونچاتا!

- رد.. أحبيك يا راوىّ!

وبعد تحيات حارة، طلب سونچاتا إلى الهاربين أن يقُصّا عليه كيف استطاعا خداع يقظة ملك مثل سوماؤرو. بكت تريبان فرحا، فهى منذ طفولتها كانت تعبر عن الكثير من التعاطف مع الطفل المعوق الذى كان هو سونچاتا، ولم تكن قط تضمر له حقدا مثل أمها ساسوما بيريتيه.

- أتدرى جاتا! قالتها وهى تبكى: لم أكن أبغى أن تغادر البلاد، إنها والدتى التى فعلت كل ذلك. الآن دُمرت نيانى وتفرق الناس فى كل مكان، كما ساق سوماؤرو العديد منهم أسرى إلى سوسو.

وانفجرت باكية. كان سونچاتا حساسا لكل ذلك، لكنه كان مدفوعا بالرغبة فى معرفة أية أمور عن سوسو. فهم بلاّ فاسيكيه الموقف وقال:

- يا تريبان، كففى دموعك، وقصى وتحدثى إلى أخيك. أنت تعلمين أنه لم يفكر قط فى إنك كنت مصدر إيذاء له، زيادة على أن كل ذلك كان قدرا.

– عندما غادرت الماندينج، أرسلنى أخى (عنوة) إلى سوسو لأكون زوجة لسوماؤرو. لأنه يخشاه كثيرا. وبكيت كثيرا فى أيامى الأولى. ولما تبينتُ أننى ربما لم أكن قد فقدت كل شيء، استسلمت مؤقتا وأصبحت أعامل سوماؤرو بلطف، حتى صرت المرأة التى يصطفيها من بين نسائه العديدات. وأصبح لى غرفة فى البرج الكبير، حيث يقيم. عرفت كيف أتملقه، وأجعله غيورا، وسرعان ما صرت موضع ثقته. تظاهرت بكراهيتى لك، وأشارك أمى حقدها الذى تكنه لك. وقيل إنك ستعود يوما ما، لكننى أكدتُ له، أنك غير عازم على المطالبة بمملكة لم تكن تملكها قط وأنك سافرت على ألا تعود ثانية إلى الماندينج. فى هذه الأثناء كنت على علاقة وثيقة ببلاّ فاسيكيه، فكلانا يريد اكتشاف سر القوة السحرية لسوماؤرو.

وذات ليل هاجمت سوماؤرو بعنف وقلتُ له: "قل لى، يا من يناديه الملوك وهم يرتجفون، قل لى يا سوماؤرو هل أنت رجل مثل الآخرين، هل أنت الند للجان الذين يحمون البشر؟ لا أحد يقدر أن يتحمل بريق عينيك، قوة ذراعك بعشرة أذرع، قل لى، أيها الملك، يا ملك الملوك، قل لى أى جان يحميك حتى أقدس له أنا أيضا". هذا الكلام ملأه كبرياء، لقد ازدهى لى بقوة "التانا" "Tana"، وفى ذلك المساء أدخلنى غرفته السحرية وأخبرنى بكل شيء.

"وهكذا ضاعفت من حماسى أن أبين له إخلاصى لقضيته، وبدوت أكثر إلحاحا منه، بل هو الذى انتهى به الأمر إلى أن يقول

لى تحلى بالشجاعة، وأننا لم نفقد شيئًا بعد. أثناء ذلك أعددت بالاتفاق مع بلاّ فاسيكيه – للهرب المحتوم. لا أحد فى الحرم الملكى يراقبنى، وأنا أعرف كل خفاياه. وذات مساء وكان سوماؤرو، غائبا غادرت البرج الرهيب. كان بلاّ فاسيكيه ينتظرنى أمام الباب، الذى كنت احتفظ بمفتاحه، وهكذا يا أخى، غادرنا سوسو.

استطرد بلاّ فاسيكيه: "لقد هرعنا نحوك، لقد جعلنى خبر انتصار طابون أفهم أن الأسد كسر أغلاله".

يا ابن "سوجولون، أنا القول وأنت الفعل، لقد بدأ مصيرك الآن".

غمرت السعادة سونچاتا لاستعادته شقيقته وراويه، والآن لديه المنشد وبكلامه يخلد ذكراه. فلن يكون هناك أبطال إذا ما نسى الناس مآثرهم، لأننا نسعى لإثارة إعجاب هؤلاء الذين يعيشون، وندعو لإجلال أولئك الذين يتعين مجيئهم.

لقد أُخبر جاتا أن سوماؤرو كان يتقدم على طول النهر، وكان يريد أن يسد عليه الطريق للماندينج. كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق؛ ولكن قبل مغادرة سيبى، نظم سونچاتا حفلا راقصا فى المعسكر على دقات التام تام بغية أن يُوحّد بلاّ فاسيكيه – بكلامه – قلوب الجنود. وفى وسط الدائرة الكبيرة التى شكلها الجنود، امتدح بلاّفاسيكيه أبطال الماندينج. وقال لملك طابون:

- أنت يا من تستطيع بذراعك الحديدية أن تطيح بعشرة رءوس فى مرة واحدة، أنت يا "طابون وانا" ملك السينينكيمبون والديالونكييون. أيمكنك أن تكشف لى ما أنت بمستطيع عمله، خاصة قبل أن يتم العمل العظيم؟

لقد أثارت أقوال الراوى، فران كامارا، فامتطى فرسه السريع، وحمل سيفه وأتى للوقوف أمام جاتا وقال له:

- ياماغان سونچاتا، أجدد لك قسمى أمام جميع المالينكا المجتمعين هنا، أقسم أن أنتصر أو أموت إلى جواركم، ستتحرر الماندينج ودون ذلك سيموت حدادو طابون! أطلقت قبائل طابون صيحات الموافقة وهم يستلون أسلحتهم. أما فران كامارا الذى أثارته صيحات جنوده فقام بغمز فرسه وأسرع إلى المقدمة، حيث فتح له المحاربون الصفوف، وانقض على شجرة كبيرة وبضربة من سيفه، قطع الشجرة العملاقة كما يقطع الباباى، وصاح الجيش المذهول:

- واسّا.. واسّا... آى [1] تعبيرا عن الفرح بلغة المالينكى.

ثم عاد إلى سونچاتا وهو يشهر سيفه، وقال ملك طابون:

- فى سهل جوليبا سيهاجم حدادو طابون نظراءهم من سوسو، وسيصطف الأبطال بالقرب من جاتا.

استدار بلاّ فاسيكيه ناحية كامانجان ملك سيبى، وخال ملك طابون، وقال:

– أين أنت يا كامانجان، اين فاما – جان[٢]، أين ملك الكامارا الداليكيمبون، يا كامانجان يا ملك سيبى.. أحييك.. لكن ماذا سأقول للأجيال القادمة عنك؟

قبل أن ينهى بلاّ فاسيكيه كلامه، أطلق ملك سيبى صيحة الحرب، وحث جواده الوثاب. وكان الجنود المندهشون ينظرون إلى هذا الفارس المقاتل، وهو يتوجه ناحية الجبل المطل على سيبى... وفجأة ملأت السماء قرقعة: ارتعدت الأرض تحت أقدام الجنود، وغطى الجبل بسحابة حمراء من الدخان. أهى نهاية العالم؟... رويدا تبدد الدخان ورأى الجنود كامانجان يعود، ممسكا بقطعة من السيف، أما جبل سيبى الذى اخترقه من جانب إلى الآخر، فقد أبان عن نفق عريض.

كان الإعجاب قد بلغ مداه: ظل الجيش صامتا. أما ملك سيبى، ودون أن ينطق، فقد ذهب ليصطف بجانب سوجولون جاتا.

وهكذا نوّه بلاّ فاسيكيه باسم كل قائد من القوّاد الذين أنجزوا مهام عظيمة. ومن ثمّ، قام الجيش– وقد حاز قادته على ثقته – بمغادرة سيبى.

الهوامش:

(١) Wassa- Wassa Ayé – صيحة للتعبير عن الفرح بالمالينكية.

(٢)Fama- Djan تعنى "الرئيس ذا القامة الطويلة". ومتأخرا، منذ عصر كانكو- موسى بوجه خاص، فإن Fama ستكون لقب حاكم المقاطعة، وكلمة Farin ستكون خاصة بالحكام العسكريين و Farin – Ké يراد بها "المحاربون البواسل".

كرينا Krina

أقام سونچاتا معسكره في دايالا، فى وادى جوليبا وأصبح الآن هو الذى يسد الطريق إلى الجنوب أمام سوماؤرو كانتيه. وحتى ذلك الحين كان سونچاتا وسوماؤرو يتقاتلان دون إعلان الحرب. إذ لا تُشن الحرب دون الإعلان عن سببها، فهؤلاء الذين يتقاتلون يتعين عليهم مسبقا، إصدار إعلان تظلم، وبالمثل فلا يتعين على العرّاف مهاجمة أحد دون أن ينسب إليه عملا خاطئا. كذلك فالملك يتوجب عليه ألاّ يهجم على أحد دون الإفصاح عن سبب لجوئه للحرب.

تقدم سوماؤرو وحتى كرينا بالقرب من قرية دايالا على نهر الجوليبا، وصمم على إثبات حقوقه قبل الاشتباك مع العدو.

كان سوماؤرو يعرف أن سونچاتا عراف أيضا، وبدلا من إيفاد وفد رسمى أسرّ بكلامه إلى إحدى بوماته. وحط طائر الليل على سطح خيمة سونچاتا وتكلم. فما كان من ابن سوجولون إلا أن أرسل بدوره بومته إلى سوماؤرو. وهذا هو حوار الملكين العرافين:

– قال سوماؤرو: قف، أيها الرجل الشاب. من الآن أنا ملك الماندينج؛ إذا كنت تريد السلام، فعد من حيث أتيت!

– سأعود، يا سوماؤرو، لأستعيد مملكتى. فإذا أردت السلام، عليك بتعويض حلفائى عن خسائرهم، وتعود إلى سوسو، حيث أنت الملك.

– أنا ملك الماندينج بقوة السلاح وتوطدت حقوقى بانتصارى.

– إذن سأنزع منك الماندينج بقوة السلاح، [وسأطردك من مملكتى].

– لتعلم أننى نبت الصخور المتوحش، فلن يخرجنى أحد من الماندينج.

– لتعلم أيضا أن فى معسكرى سبعة قادة من الحدادين، الذين يفجرون الصخور، أى سآكلك أيها النبات!

– أنا الفطر السام الذى يدفع بالعنيد للتقيؤ!

– أنا الديك الجائع، الذى لا يؤثر فيه السم!

– كن عاقلا، أيها الصبى الصغير. إنك ستحرق قدميك بنفسك، فأنا الرماد المحرق!

– أنا، المطر الذى يطفئ الرماد، أنا الرعد العاصف، الذى سأنتزعك!

– أنا شجرة القابوق الضخمة، التى تنظر من عل، من فوق هامات الأشجار الأخرى!

- أنا الشجرة ذات العروش الكثيفة التى ترتفع عن قمة الأشجار العملاقة فى الغابات!

- كف عن المناقشة، فلن تأخذ الماندينج!

- لتعلم يا سوماؤرو أنه لا مكان لملكين على نفس الجلد الواحد، وستتخلى لى عن المكان!

- إذن، بما أنك تريد الحرب، سأشن عليك الحرب. لتعلم أيضا أننى قتلت تسعة ملوك، وتزين رءوسهم غرفتى، ولعمرى تبًّا لك فرأسك ستأخذ مكانها بجانب رؤوس أولئك المتهورين أمثالك!

- هيئ نفسك، يا سوماؤرو، فالأذى الذى سينصب عليك، وعلى خاصتك، لن ينتهى عما قريب.

هكذا تحدث كل من سونچاتا وسوماؤرو. وبعد حرب الكلام كان على السيوف حسم الخواتيم. كان ابن سوجولون داخل خيمته حينما أخبروه بوصول فاكولى، ابن أخت سوماؤرو الثائر. حمل الجميع السلاح، وصف قادة الحرب رجالهم، ولما انتظم كل شىء داخل المعسكر، استقبل جاتا والقادة الماندينكا فاكولى الذى كان متبوعا بمحاربيه، ووقف فاكولى أمام سونچاتا وتحدث هكذا:

- أحييك يا سونچاتا، أنا فاكولى كوروما، ملك قبيلة حدادى كوروما، سوماؤر وهو شقيق والدتى كاسيا. لقد حملت السلاح فى وجه خالى لأن سوماؤرو أهاننى، ودون خوف أو وجل من ارتكاب

المحارم. فقد مضى فى الصفاقة حتى بلغ به الأمر أن اختطف زوجتى كليًا.

وأنت، لتستعيد مملكة آبائك، ستحارب سوماؤرو، لدينا الهدف نفسه، سأضع نفسى تحت إمرتك، سأحضر لك الحدادين ذوى الأيدى الباطشة، سأحضر لك جندا لا تعرف قلوبهم الخوف، يا سونچاتا، أنا ورجالى لك"!

قال "بلاّ" راوى سونچاتا:

- يا فاكولى، فلتأخذ مكانك بين أقرانك، الذين أصابهم ظلم سوماؤرو، هيا، فالمحب للعدل والمنصف سيلحق بك فى عقر داره. فإذا ما عُهد بقضيتك إلى ابن سوجولون، فلن تستطيع أن تفعل أفضل منه!

أصدر سونچاتا إشارة تعنى أن الراوى قد أجاد الحديث، لكنه أضاف:

- أدافع عن الضعيف، أدافع عن البرىء، يا فاكولى؛ لقد عانيت من الظلم، وأعترف بحقك، ولكن قادتى من حولى، ويتعين علىّ معرفة رأيهم.

وافق كل قادة الحرب، وصارت قضية فاكولى هى قضية جاتا، ويجب إعادة الحق للرجل الذى أتى يلتمس العدالة.

وهكذا استقبل سونچاتا، فاكولى دا- با، ففاكولى هو المفوّه بين قواده فى الحرب.

كان سونچاتا يريد الانتهاء إلى حل مع سوماؤرو فى هذا الموضوع قبل الأيام الشتوية. فجيّش معسكره وسار نحو كرينا حيث عسكر سوماؤرو. وفهم هذا الأخير أن لحظة المعركة الحاسمة قد أتت. ونظم سونچاتا رجاله على التلة الصغيرة التى تطل على السهل، كانت المعركة الحاسمة فى اليوم التالى.

وفى المساء، أقام جاتا حفلا كبيرًا، كى يقوى من عزم الرجال، وكان حريصا على أن يستيقظ رجاله فى الصباح مسرورين، وذبحت العديد من العجول. وفى ذلك المساء، استعرض بلاّ فاسيكيه- أمام كل الجيش- تاريخ الماندينج القديم وناجى سونچاتا الذى كان يجلس وسط ضباطه هكذا:

- أتوجه إليك الآن، يا ماغان سونچاتا، أتحدث إليك يا ملك الماندينج، يهرع إليك الملوك الذين اغتصبت حقوقهم. لقد جاء الوقت الذى تنبأت به الجان لك! يا سونچاتا، إن الممالك والإمبراطوريات على صورة الإنسان، مثله تولد وتشب وتختفى، ويجسد كل ملك لحظة فى هذه الحياة. ففى سالف الزمان بسط ملوك واجادو مملكتهم على كل البلاد التى يسكنها الرجل الأسود، لكن الدائرة أغلقت، ولم يعد الواجادو سيسيه سوى أمراء صغار فى أرض مقفرة. واليوم

تنتصب مملكة أخرى. قوية، هى مملكة سوسو: فقد دفع الملوك الصاغرين إتاواتهم إلى سوسو. فغطرسة سوماؤرو لا تعرف حدودا، وقسوته فى مستوى طموحه. فهل سيحكم سوماؤرو العالم؟ أنحن ملزمون، نحن رواة الماندينج على نقل الذل والإهانات التى وجهها ملك سوسو إلى البلاد للأجيال القادمة؟ كلاً يا أبناء "البلاد المشرقة" تهللوا فملك سوسو ملك الأمس فحسب، أما ملك الماندينج فيؤرخ له منذ عصر "بلال"، فلكل مملكة طفولتها. ويريد سوماؤرو أن يتخطى الزمن، ولكن ستنهار مملكة سوسو من تحته، مثل الجواد المتعب تحت أقدام خياله!

"أنت، يا ماغان، أنت الماندينج، ومثلك فللماندينج طفولة طويلة وصعبة:

فقد سبقك على عرش نيانى ستة عشر ملكا. ستة عشر ملكا حكموا البلاد وبحظوظ مختلفة. فقد صار الكيتا رؤساء قبيلة بعد أن كانوا رؤساء قرى ثم ملوكا، ستة عشر جيلا وطدوا فيها سلطتهم. أنت تتشبث بالماندينج مثلما تتشبث شجرة القابوق بالأرض، بجذورها القوية والعميقة. ولمواجهة العاصفة تحتاج الشجرة إلى جذور طويلة، وأفرع مليئة بالعقد، ألم تكبر الشجرة يا ماغان سونچاتا!

"لتعرف يا ابن سوجولون، أنه لا مكان لملكين حول نفس آنية الأرز! فحينما يأتى ديك غريب إلى حظيرة الدواجن، يسعى الديك

القديم إلى شن معركة معه، وتنتظر الدجاجات الطيعات ما إذا كان القادم الجديد سيفرض نفسه أم سيخضع؟ لقد جئت إلى الماندينج، حسنا! افرض نفسك، وستفرض القوة قانونها، حيث السلطة لا تقبل أية شراكة.

"إصغ لما قام به أجدادك الأولون، لكى تعرف ما يتعين عليك فعله.

"إن بلال، وهو الثانى الذى يحمل هذا الاسم، غزا الماندينج القديمة. ولا تال كالابى غزا البلاد الواقعة بين جوليبا وسانكارانى. أما لاهيبا تول كالابى ذو الذاكرة الشهيرة، فقد جلب البركة الإلهية على الماندينج، بذهابه إلى مكة. وجعل مامادى كانى من الصيادين محاربين، وأعطى القوة المسلحة إلى الماندينج. أما ابنه بامارين، تانيوكلين ذلك الملك الحقود الميال إلى الثأر، فقد أرعب الماندينج بهذا الجيش. وماغان كون فاتا المسمى ناريه ماغان الذى تدين له اليوم، جعل السلام يسود فى جميع أرجاء الماندينج، وقدمت الأمهات اللاتى يرفلن فى السعادة شبابا كثيرا للماندينج.

"أنت ابن ناريه ماغان، وأيضا ابن أمك سوجولون، المرأة العجل التى تتقهقر أمامها العرافون الأشداء من الخوف، أنت تملك قوة الأسد وعظمته ومقدرة العجل وبأسه.

"قلت لك ما ستتعلمه الأجيال القادمة عن أجدادك، لكن ماذا باستطاعتنا أن نحكى لأبنائنا، كى تظل ذكراك حية؟ ماذا علينا أن

نعلمه إلى أبنائنا عنك؟ أية مفاخر لا سابق لها، وأية أعمال لا تنسى، ولأية أعمال جريئة حاسمة سيندم أبناؤنا لأنهم لم يعيشوا فى عصر سونچاتا؟

"الرواة هم أناس الكلام، وبالكلام يهبون الحياة لأعمال الملوك، إلاَّ أن الكلام ليس إلاَّ كلامًا، فالقوة تكمن فى الفعل، فكن رجل أفعال، لا تجبنى بالكلام، بل أرنى غدا فى سهل كرينا ما تريد أن أقصه على الأجيال القادمة. وغدا، فلتسمح لى أن أغنى لحن الطيور الجارحة التى تحوم على أجساد آلاف السوسّو الذين سيغشيهم سيفك قبل المساء"!

وهكذا عشية كرينا، أعاد بلاّ فاسيكيه على سونچاتا تاريخ الماندينج، ليبدو فى الغد خليقًا بأجداده الأوائل.

وفى مطلع الفجر، ذهب فاكولى لإيقاظ جاتا، وإخباره أن سوماؤرو كان قد بدأ فى إجلاء جنوده عن كرينا، وظهر ابن سوجولون وهو يرتدى زىّ ملك صياد، كان يرتدى سروالا ذا لون ذهبى. وأصدر أمرا بنشر الجنود المشاة خلال السهل؛ وبينما كان القادة منشغلون، إذا بماندينج بورى ونانا تريبان يدخلان إلى خيمة جاتا.

– قال ماندينج بورى: يا أخى. هل أعددت القوس؟

– أجاب جاتا: نعم، انظر!

وخلع قوسه من فوق الحائط ومعه السهم القاتل. لم يكن قط سهما من حديد بل كان من الخشب؛ وضع فى طرفه ظفر ديك أبيض؛ وكان هذا الظفر هو "تانا" سوماؤرو، وهو السر التى عرفت نانا تريبان أن تنتزعه من ملك السوسو.

- وقالت نانا تريبان: يا أخى، الآن يعرف سوماؤرو أننى هربت من سوسو. اجتهد فى أن تتقدم منه، لأنه سيهرب منك طوال المعركة.

ترك كلام نانا تريبان، جاتا قلقا، إلاً أن بلاّ فاسيكيه الذى كان قد دخل الخيمة قال لسونچاتا: إن العرّاف رأى فى المنام نهاية سوماؤرو.

كانت الشمس قد أشرقت من الناحيةَ الأخرى للنهر، وكانت تغمر بضيائها السهل كله. وانتشرت قوات سونچاتا خلال السهل بدءا من النهر؛ أما جيش سوماؤرو فكان كثير العدد حتى إن جنودا آخرين ممن ظلوا فى كرينا، صَعدَوا على الأسوار ليشاهدوا المعركة. وكان قد سبق أن لوحظ سوماؤرو بغطاء رأسه العالى من بعيد، أما أجنحة جيشه المترامى فكانت تلامس النهر من ناحية والتلال من الأخرى.

وكما حدث فى "تجوبوريا"، لم ينشر سونچاتا كل قواته؛ أمسك برماه سهام واجادو والجالونكيه فى مؤخرة الجيش، مستعدين للالتفاف ناحية اليسار باتجاه التلال تحسبا لاتساع المعركة، بينما كان

كل من فاكولى كوروما وكامانجان فى الصف الأول مع سونچاتا وفرسانه.

وصاح سونچاتا بصوته القوى: An gnewa [1] أى إلى الإمام! وتكرر الأمر من قبيلة لأخرى. وبدأ الجيش المسير، ولبث سوماؤرو إلى اليمين مع فرسانه.

هاجم جاتا وسلاح فرسانه بحمية، إلاَّ أن فرسان دياغان أوقفوهم والتحموا فى قتال مميت: كما نشر "طابون وانا" ورماة أقواس واجادو صفوفهم باتجاه التلال. وعمت المعركة كل السهل، بينما الشمس المحرقة قد صعدت في السماء. وكانت جياد ميما ذات رشاقة خارقة للعادة. فقد قفزوا وأرجلهم الأمامية مرفوعة، وانقضوا على فرسان دياغانكا. الذين تدحرجوا على الأرض قتلى تحت سنابك الخيل وسرعان ما تخاذل الدياغان وانسحبوا على عجل نحو الخلف، لقد تم اختراق مركز العدو.

وهكذا وصل ماندينج بورى خائر العزم، ليعلن لسونچاتا أن سوماؤرو الذى استعان بكل احتياطيه قد هجم على فاكولى وجنوده الحدادين. وكان جليا أن سوماؤرو قد عمد إلى عقاب ابن أخته، الذى اندحر بسبب عنف هجوم العدو. وكان رجال فاكولى قد بدءوا التخلى عن الميدان، ولم تكن المعركة قد حسمت بعد.

وسحب سونچاتا - الذى كانت عيناه قد احمرتا من فرط الغضب- سلاح فرسانه باتجاه اليسار ناحية التلال حيث كان فاكولى يتحمل ببسالة ضربات خاله.

وحيثما مر ابن العجل، كان الموت يتلهى. وأعاد وجود سونچاتا التوازن حيث كان جنود سوسو بأعداد غفيرة. وبحث ابن سوجولون عن سوماؤرو، ولمحه وسط حومة القتال، وضرب سونچاتا يمنة ويسرة، فابتعد السوسو عن طريقه؛ أما ملك سوسو الذى لم يكن يريده أن يقترب، فقد انسحب بعيدا خلف رجاله. وكان سونچاتا يتابعه بنظراته، ووقف ومد قوسه، وانطلق السهم ولمس كتف سوماؤرو، ولم يترك ظفر الديك إلاَّ خدشا بسوماؤرو، لكن أثر ذلك كان فوريا، وأحس سوماؤرو أن قواه قد تخلت عنه، وتلاقت نظراته بنظرات سونچاتا، وهو يرتعد الآن كمن أصابته الحمى. ورفع المهزوم عينيه إلى السماء، ورأى طائرا أسودَ كبيرًا يمر من فوق حومة القتال، وفهم أنه طائر الشؤم.

- وهمهم، أنه طائر كرينا.

أطلق ملك سوسو صرخة عالية، وأدار مقود دابته وهرب. رأى السوسو الملك يفر ففروا بدورهم. إنها الهزيمة، وحوَم الموت على السهل الكبير؛ وسالت الدماء غزيرة. فمن ذا الذى يمكنه أن يقدر أعداد السوسو الذين قتلوا فى كرينا؟ كانت الهزيمة كاملة، واندفع سونچاتا فى أعقاب سوماؤرو.

كانت الشمس تتوسط السماء، وكان فاكولى قد لحق بجاتا. وامتطى كل منهما جواده وتعقبا الفارين. كان سوماؤرو متقدما بدرجة كبيرة، وانطلق ملك سوسو من خلال الدغل الجاف تاركا السهل، يتبعه ابنه بلاّ وبعض القادة السوسو. ولما أسدل الليل أستاره، توقف كل من سونچاتا وفاكولى عند ضيعة صغيرة، وأخذا بها قسطا من الراحة والطعام، ولم ير أحد من السكان سوماؤرو. فواصل سونچاتا وفاكولى الملاحقة عندما لحق بهما رجال سلاح الفرسان من ميما. لقد ركضا بجواديهما طوال الليل، وعند الصباح علم جاتا من بعض الفلاحين أن فرسانا مروا أثناء الليل. لقد تسلل ملك السوسو من كل الكتل المتجمعة. كان يعرف أن السكان، وهم يرونه فى حالة فرار، لن يترددوا أبدًا فى الإمساك به، ليدخلوا فى حظوة الرئيس الجديد. ولم يكن يتبع سوماؤرو سوى ابنه بلاّ، وبعد استبدال الدواب عند طلوع الفجر، كان ملك السوسو لا يزال يركض باتجاه الشمال.

عثر سونچاتا بصعوبة على آثار الفارين، وكان فاكولى قد أدرك أن جاتا على دراية أكبر بهذا البلد، وكان من الصعوبة أيضا أن نعرف أى الرجلين يُكنّ البغض والكراهية أكثر ضد سوماؤرو: فأحدهما ينتقم لبلده المُهان، والآخر كان مدفوعا بحب امرأة. وعند الظهيرة كانت جياد سونچاتا وفاكولى تلهث تعبا، ووقف من يقتفون أثر سوماؤرو عند بانكومانا. وتناولوا بعض الطعام، وعلم سونچاتا أن سوماؤرو كان يتجه إلى ناحية كوليكورو، ولم يعط لنفسه وقتا

سوى لاستبدال المطايا، واستأنف سونچاتا وفاكولى المسير فى الحال. قال فاكولى:

- إننى أعرف طريقا أقصر كى نذهب إلى كوليكورو، وإن كان طريقا وعرًا وستجُهد جيادنا.

- قال جاتا: هيا بنا!

واندفعا إلى طريق وعر، ملئ بالحفر، يتقاطع عبر الحقول، وهما فى طريقهما إلى الأدغال. وقال فاكولى وهو يشير بإصبعه أمامه:

- انظر هناك، لترى التلال التى تنبئ عن بلوغنا كوليكورو. لقد كسبنا الوقت!

- هذا أفضل! قالها جاتا ببساطة.

فى هذه الأثناء كانت الجياد قد أُجهدت، كانت تسير بسرعة أقل، ترفع أرجلها بعناء من على الأرض، ولما لم تكن هناك أية قرية على مرأى البصر، ترجل سونچاتا وفاكولى كى يسمحا للمطايا بالراحة، وكان لدى فاكولى فى سرج فرسه حقيبة صغيرة بها ذرة بيضاء فقدم لهم الغذاء: واستراح الرجلان تحت شجرة، وقال فاكولى: رغم أن سوماؤرو قد سلك طريقا سهلا لكنه طويل، لن يصل إلى كوليكورو إلا مع الغسق. وقد كان يتكلم بوصفه رجلا جال

وصال بجواده عبر هذه البلاد. فاستأنفوا مسيرتهم، وارتقيا التلال؛ حتى بلغا القمة، فرمقا فارسين فى قاع الوادى يتجهان إلى الجبل.

- صاح جاتا: ها هما!

كان الليل قد أقبل، بعد أن كانت أشعة الشمس تداعب قمة جبل كوليكورو. وحينما رأى سوماؤرو وابنه اثنين من الفرسان خلفهما، حسما أمرهما، وبدءا فى تسلق الجبل. وكان ملك سوسو وابنه بلاّ كمن يركبان جيادا حديثة العهد. وضاعف فاكولى وجاتا من مجهودهما.

كان الفاران على مرمى السهام، وصاح فيهما جاتا:

- قفا.. قفا! ٥

كان فاكولى- مثله مثل جاتا- يريد الحصول على سوماؤرو حيا، وقام زوج كيليا بانعطافة فى الطريق، وأحاط بسوماؤرو وحاصره من اليمين. وقام بوثبة وهو على فرسه، وكاد يضع يده على خاله، لكن هذا الأخير هرب منه بانحرافة مباغتة، وفى اندفاعه، اصطدم فاكولى ببلاّ، وتدحرج الاثنان على الأرض. نهض فاكولى وأمسك بابن خاله بينما كان سونچاتا، الذى ألقى برمحه بكل قوته مما أدى إلى سقوط فرس سوماؤرو، نهض الملك العجوز، وبدأ نزالا على الأقدام. كان سوماؤرو شيخا قويا، كان يتسلق الجبل بكثير من الرشاقة، ولم يكن جاتا يريد إحداث جرج به أو قتله بل يريد أخذه حيا.

أوشكت الشمس على المغيب تماما، وكان ملك سوسو قد هرب من جاتا مرتين:

فسوماؤرو الذى بلغ قمة كوليكورو، نزل بسرعة على المنحدر متبوعا بجاتا، وعلى اليمين رأى مغارة كوليكورو المظلمة، ودلف إليها دون تردد. وقف سونچاتا أمام المغارة. فى هذه اللحظة وصل فاكولى- وقام بقيد يدى سوسو بلاّ ابن خاله.

- قال سونچاتا، هناك، لقد دخل المغارة.

- قال فاكولى. إنها تفضى إلى النهر.

وسمع وقع أقدام الجياد، كانت عملية إطلاق فرسان ميما Mema. وفى الحال أرسل ابن سوجولون بعضا منهم باتجاه النهر، وعمل على حراسة الجبل كله. كان الليل فى تمامه، دخل سونچاتا إلى كوليكورو مع فاكولى، وهناك انتظر وصول بقية الجيش[٢].

كان نصر كرينا مدويا، وذهبت فلول جيش سوماؤرو ليتم حبسهم فى سوسو. فماذا عساه فاعل بإمبراطورية سوسو؟ كان الملوك يعبرون عن إذعانهم لسونچاتا من كل مكان؛ فقد أرسل ملك غيديماجان إلى جاتا بوفد قوى، وفى الوقت نفسه قدم ابنته للزواج من المنتصر، وتوافدت الوفود إلى كوليكورو، وحينما لحق الجيش كله بسونچاتا، سار إلى سوسو أى مدينة سوماؤرو، سوسو تلك المدينة الحصينة، مدينة الحدادين الفرسان المهرة فى تصويب الرماح.

وفى غيبة الملك وابنه، كان يقوم بالدفاع عن المدينة رئيس القبيلة ويدعى نومونكيبا، وسرعان ماكدّس كل ما استطاع العثور عليه من المؤن فى الريف المجاور.

كانت سوسو مدينة بهية الجمال؛ كانت تضرب فى الريف بشراعها الثلاثى من الأبراج المخيفة حيث تضم المدينة ١٨٨ مكانا حصينا. وكان قصر سوماؤرو يقف منتصبا كبرج عملاق من فوق المدينة كلها. ولم يكن لمدينة سوسو سوى باب واحد، باب ضخم من الحديد، من صنع أبناء الحروب.

كان نومونكيبا يأمل أن يمكّن سونچاتا من سوسو، ففيها من أسباب العيش ما يكفى لمدة عام.

كانت الشمس قد بدأت فى المغيب حين ظهر سوجولون جاتا أمام سوسو البهية ووقف سونچاتا ورئيس أركانه يتأملان مدينة الملك العراف العظيمة؛ من أعلى التل وعسكر الجيش أمام السهل فى مواجهة باب المدينة الضخم. أضيئت الأنوار داخل المعسكر، وكان جاتا يريد الاستيلاء على سوسو فى الصباح؛ وقدم الطعام بكميات مضاعفة لرجاله والتام- تام(*) تقرع طوال الليل لإثارة الفاتحين لكرينا.

(*) وتعرف محليا باسم "طبلة جيمبى".

وفى مطلع النهار، كانت أبراج المتاريس سوداء من كثرة الجنود المشاة. كما وضع جنود آخرون على المتاريس نفسها، إنهم رماة الأقواس. إن المانينكا، بارعون فى فن احتلال المدن. فوضع سونچاتا جنود المانديبنج فى الصف الأول، والمساعدون فى الصف الثانى، تحت حماية دروع الأمان لرماة السهام. كان يتعين على السواد الأعظم من الجيش أن يهجم على باب المدينة. ولما أصبح كل شىء جاهزًا، أصدر جاتا أمر الهجوم. أعادت الطبول قرعها، وصدحت الأبواق. وبمثل هذا الحشد تحرك الصف الأول لجنود المانديبنج، وهم يطلقون الصيحات المدوية، وقد رفعت الدروع فوق الرءوس، تقدم المانينكا حتى بلغوا مكانا لا مخرج منه، وهنا بدا السوسو فى إلقاء أحجار غليظة كانت تنهمر كالمطر على المهاجمين. وفى المؤخرة كان رماة السهام الواجادو يقذفون بسهامهم على المتاريس، وعم الهجوم على المدينة من كل الجبهات. كان سونچاتا يملك احتياطيا مرعبًا إنهم رماة الأقواس الذين كان ملك البوبو BoBo قد أرسلهم له قبل معركة كرينا مباشرة، وهم أفضل الرماة فى العالم. وجثا رماه الأقواس على ركبهم على الأرض وظلوا يلقون بالسهام المشتعلة فوق المتاريس، وعلى الجدران، فاشتعلت دور القش، وصعد الدخان كالإعصار. وأقيمت المدرجات فى مواجهة سور القصر؛ وكان طليعة الجنود (المشاة) من المانينكا فى الذروة. واستولى الهلع على السوسو لرؤيتهم المدينة وهى تحترق. وترددوا برهه، فقد أزيل

البرج الأثرى المشرف على الباب، لقد استولى عليه حدادو فاكولى، إذ كانوا قد دخلوا المدينة على صرخات النساء والأطفال التى أصابت السوسو بالذهول. لقد فتحوا الباب على مصراعيه أمام الجيش بكامل قواه وبدأت المذبحة، كانت النساء والأطفال بين السوسو الفارين يلتمسون العفو من المنتصرين. وصار جاتا وسلاح فرسانه الآن أمام البرج، القصر الرهيب لسوماؤرو.

لقد أحس نومونكيبا بالضياع، وخرج للحرب والقتال. وهجم على جاتا شاهرا سيفه، لكن هذا الأخير تفاداه، وأمسك بالذراع المسلح لسوسو، وأركعه على ركبته حتى سقط السيف منه، ولم يقتله، وسلمه إلى ماندينج بورى.

لقد أصبح قصر سوماؤرو الآن تحت رحمة سونچاتا. وبينما السوسو يلتمسون العفو، دخل سونچاتا، مسبوقًا ببلاّفاسيكيه إلى برج سوماؤرو. وكان الراوى يعرف القصر إبان أسره فيه. ويعرف كل خباياه، فقاد سونچاتا إلى غرفة سوماؤرو السحرية. فلما فتح بلاّ فاسيكيه باب الغرفة وجدها وقد تغيرت هيئتها منذ أصيب سوماؤرو بالسهم القاتل، فقد خارت قوى ساكنى الغرفة جميعا - فثعبان القدر كان يحتضر وكانت البومات تتخبط على الأرض على نحو مثير للرثاء. لقد نفق كل شيء فى منزل العراف الذى كان يستمد القوة من سوماؤرو. وأنزل سونچاتا تمائم ورقى سوماؤرو، وجمعوا كل نسائه أمام القصر، وأيضا كل الأميرات اللاتى كن قد اختطفن بالقوة من

أسرهن. وكانوا قد فرغوا من تجميع الأسرى بعد أن قيدوا أيديهم خلف ظهورهم، وهكذا، وكما كان يريده سونچاتا، فقد استولى على سوسو ذات صباح وقبل أن ينتصف النهار.

ولما أصبح كل شيء خارج المدينة وأخرج كل ما يمكن أخذه، أصدر سونچاتا أمرا بإكمال التدمير: فأضرمت النيران فى آخر ما تبقى من المنازل، واستعمل الأسرى فى هدم الجدران. وكما أراد سونچاتا، دمرت سوسو من أساساتها.

نعم.. لقد دكت سوسو، اختفت هذه المدينة المزهوة ذات الكبرياء. وخيمت وحشة مرعبة على الأماكن التى كان الملوك يفدون إليها للتذلل أمام الملك الساحر سوماؤرو. واختفى أى أثر للدور، ولم يتبق شيء من قصر سوماؤرو ذى الطوابق السبع. صارت المدينة ساحة للخراب والكآبة، وأصبحت سوسو مكانا تأوى إليه عصافير الغابة وفراخ الحجل لتمرح. ومنذ خلت هذه الأماكن من ساكنيها، جرت سنين عديدة، وظهرت الأقمار مرات عديدة فى السماء، والبورين شجرة الشؤم (٣) تمدد أشواكها وتنطلق وحيدة فى عاصمة سوماؤرو. ولم تعد سوسو تلك المزهوة ببهائها سوى ذكرى؛ ولا تتردد سوى فى أفواه الرواة، حيث تأوى إليها الضباع تبكيها فى الليل، وأيضا الأرانب البرية والظباء كى ترعى على موقع قصر سوماؤرو؛ ذلك الملك الذى كان يرتدى ملابس من جلود آدمية.

لقد اختفت سوسو من على وجه الأرض. إنه سونچاتا، ابن العجل الذى أصاب هذه الأماكن بالوحشة.

وبعد تدمير عاصمة سوماؤرو، لم يعرف العالم سيدا آخر سوى سوجولون جاتا.

الهوامش:

(١) An gnewa = إلى الأمام

(٢) الروايات كثيرة حول نهاية ملك سوسو، وتلك كانت رواية هامانا Hamana، أما رواية ديوما Dioma (جنوب سيغيرى) فتذكر أن سوماؤرو، حين كان سونچاتا يتعقبه، دعا للمرة الأخيرة الجان الحامية، طالبا منهم ألا يتركوه يسقط فى يد سونچاتا، أن يتحوّل إلى حجر على قمة كوليكورو.. وهناك روايات تذكر أن سوماؤرو، وقد أصيب من ظفر الديك فى كرينا، اختفى من ميدان المعركة نفسه.

فبعد معركة كرينا، لم نسمع قط من يتحدث عن ملك سوسو؛ أما ابنه بلاّ الذى كان قد أسره فاكولى، فقد اقتيد أسيرا إلى الماندينج.

(٣) Bouréin هى شجرة قزمة تنمو فى الأرض القاحلة وهى نوع من جاردينيا السافانا. والبورين خشبها محظور فى المطابخ، فهو يجلب الشؤم.

الإمبراطورية

بينما كانت سوسو ترزح تحت ما جلبه لها أبناؤها بأنفسهم، كان سونچاتا يزحف نحو دياغان Diaghan التى كان ملكها هو الحليف الأشد خطرا لسوماؤرو. لقد ظل مخلصا لقضية سوماؤرو بعد معركة كرينا، حيث انزوى فى مدينته، فخورا بفرسانه. وكالعاصفة الهوجاء هجم جاتا على دياغان، وهى مدينة المارابو[1]. ومثلها مثل سوسو تم الاستيلاء عليها ذات صباح، وأمر سونچاتا بحلاقة رأس كل الشباب من الرجال وأعدّهم ليكونوا جنودا من المشاة.

كان سونچاتا قد قسم جيشه إلى ثلاثة فيالق: الأول تحت إمرة فاكولى كوروما، ويقاتل فى البامبوجو، والثانى تحت إمرة فران كامارا ومؤلف من حداديه الفرسان، ويقاتل فى جبال فوتا، أما سونچاتا ومعه معظم الجيش فيتجهون إلى كيتا، المدينة الكبرى.

كان كيتا مانسا ملكا ذا بأس، وكان تحت حماية جان الجبل الكبير الذى يشرف على مدينة كيتا Kita فى كيتا كورون، وكان ثمة بركة صغيرة للمياه السحرية فى وسط الجبل. فمن كان يصل إلى هذه البركة ويشرب من مائها يصبح قويا، لكن جان هذه البركة كانوا أشرارًا غاية الشر، وملك كيتا هو الوحيد فقط الذى استطاع الوصول للبركة التى تكتنفها الأسرار.

عسكر سونچاتا فى شرق كيتا، وطلب من الملك الإذعان له، أجاب الملك كيتا مانسا، الذى يفخر بحماية جان الجبل، بعجرفة على طلب جاتا. وكان جيش ابن سوجولون يضم أربابا معصومين من الخطأ، وحسب نصائحهم استدعى جاتا جان مدينة كيتا - كورو، وقدم قربانا لهم مائة ثور أبيض ومائة جدى أبيض ومائة ديك أبيض، وقضى كل الديوك وهم مسجون على ظهورهم ووجوههم مرفوعة للسماء: لقد استجاب الجان بالقبول، ولذا لم يتردد سونچاتا قط.

ومنذ الصباح أعطى إشارة الهجوم، وأنشد الجنود أثناء هجومهم لحن القوس، أما بلاّ فاسيكيه، الذى يرتدى زى الراوى الكبير، فقد امتطى الجواد بجانب جاتا. وعند أول هجوم انفتح الباب تحت الضغط، ولم تكن هناك أية مذبحة، فقد أنقذ الجميع، الرجال والنساء والأطفال. وقتل كيتا مانسا أمام قصره، وأقام له سونچاتا جنازة ملكية.

ولم يأسر سونچاتا أى فرد فى كيتا، وصار سكانها، وهم من الكامارا، حلفاءه.

وفى الغد، أراد سونچاتا الذهاب إلى الجبل لتقديم الأضحية للجان وليقدم لهم الشكر على نصره على كيتا.. كان يتبعه كل الجيش، إن جبل كيتا صلد كالجدار، وكان جاتا يزمع القيام فيه بجولة ليتلقى مظاهر خضوع القرى العديدة الواقعة عند سفح جبل كيتا كورو. وفى بودوفو؛ قرية الكامارا، كان هناك مؤاخاة عظيمة بين

قبائل كامانجان والسكان. كانوا يرقصون ويأكلون حول صخرة بودوفو المقدسة، واليوم أيضا يقدم الكامارا الأضحية لهذه الصخرة. فقط الكامارا هم من عرف احترام ديو Dio الأسلاف الأوائل. وفى المساء عسكر الجيش فى كورون كوتو على جانب الجبل المواجه لكيتا. لقد أحسن الملك مانسا كورو استقبال جاتا، وتآخت العديد من القبائل.

وعند بزوغ نهار اليوم سار جاتا، يتبعه بلاّ فاسيكيه وبعض أعضاء القبيلة الملكية من الماندينج إلى سفح صخره كبيرة، حيث ضحى بمائة ديك أبيض إلى جان الجبل ثم ذهب جاتا، بصحبة بلاّ فاسيكيه وحده، بحثا عن البركة. ووجدها وسط الجبل فجثى على ركبتيه على حافة الماء، وقال:

– ياجان المياه، يا سيد "موغويا– جى"، يا سيد المياه السحرية لقد ضحيت لك بمائة عجل ومائة جدى ومائة ديك، لقد نصرتنى! لم أهدم كيتا وأتيت لأخلف كيتا مانسا، ولأشرب من المياه السحرية، أى "الموغويا– جيغى".

اغترف من الماء بكلتا يديه وشرب، فقد وجد الماء عذبا، وشرب منه ثلاث مرات، ثم غسل وجهه.

ولما عاد جاتا ليأخذ مكانه بين رجاله، كان لعينيه بريق لا يحتمل، كانت تشع كالنجم، لقد غيرت المياه السحرية وجهه.

عاد سونچاتا إلى كيتا قادما من كرو- كوتو، واستغرقت الرحلة حول الجبل يومين. وفى كيتا وجد وفودا من الممالك التى انتصر عليها فاكولى و"طابون وانا". وأقام ملك الماندنج فى كيتا لبعض الوقت، كان يذهب كثيرًا للصيد مع أخيه ماندينج بورى وسيبى- كامانجان، فالناس فى كيتا لا يصطادون أبدًا طريدة الجبال خوفا من الجان. أما سونچاتا فكان يصطاد فى الجبل، لأنه صار الشخص المختار لدى الجان، فهو سيمبون منذ شبابه، فقد نهل تماما من فن سانيه نى كوندولون، أى من فن آلهة الصيد وقرينها.

وكان يستحم هو ورفاقه فى نبع الجبل، والناس فى كيتا يعرفون هذا النبع ويحيطونه بكثير من الإجلال والتقدير(٢).

توجه سونچاتا مع جيشه الكبير من كيتا إلى "دو"، بلدة أمه سوجولون، وفيها استقبل جاتا مثل الخال الذى يستقبل ابن أخته.، وذهب سونچاتا وبلاّ فاسيكيه إلى سهل أورنتامبا الشهير وذلك بصحبة أحد أعضاء قبيلة التراوريه، إلى حيث شيد سكان "دو" تلة كبيرة فى المكان الذى مات فيه العجل، وضحى سونچاتا على التلة بديك أبيض، فلما سجى الديك على ظهره هبت زوبعة عاتية انتزعت الأشجار وهى تتجه نحو الغرب!

قال بلاّ فاسيكيه: انظر! إن الزوبعة تسير نحو بلاد الماندينج. قال نعم: لقد حان وقت العودة إليها. ومن مدينة "دو"، أرسل سونچاتا

وفدا مهما إلى ميما، محملا بهدايا ثمينة. وهكذا وفّى الدين الذى كان فى عنقه، وأعلم الوفد، الملك أن أبناء سيسيه - تونكارا والكيتا أصبحا حلفاء إلى الأبد.

ومن "دو" أمر سونچاتا جميع قواده بعقد لقاء فى كابا، على نهر جوليبا فى بلاد ملك سيبى. لقد أكمل فاكولى فتوحاته، كما أخضع ملك طابون أبناء جبال فوتا. لقد أخضعت أسلحة سونچاتا كل بلاد الساقانا؛ ابتداء من واجادو فى الشمال إلى الماندينج فى الجنوب، ومن ميما فى الشرق إلى فوتا فى الغرب. لقد اعترفت كل البلاد بسلطة سونچاتا وسلك جيش جاتا وادى جوليبا متجها إلى كا - با.

الهوامش:

(١) Diaghan دياغان- المقصود هنا هو مدينة "ديا" Dia: وحسب الروايات كانت مدينة كبار المارابو. حيث حكم الدياوارا - Diaware في "ديا". وهذا الاسم يعنى طبقا لعلم أصول الاشتقاق (أسد ديا).

(٢) حول إقامة الإمبراطور فى كيتا، فقد اتبعتُ رواية ديوما؛ حيث يزعم الكيتا فى ديوما أن جدهم الأول، كان أحد أحفاد سونچاتا، غادر كيتا للاستقرار فى ديوما Dioma وكانت كيتا إحدى أكبر مدن الإمبراطورية.

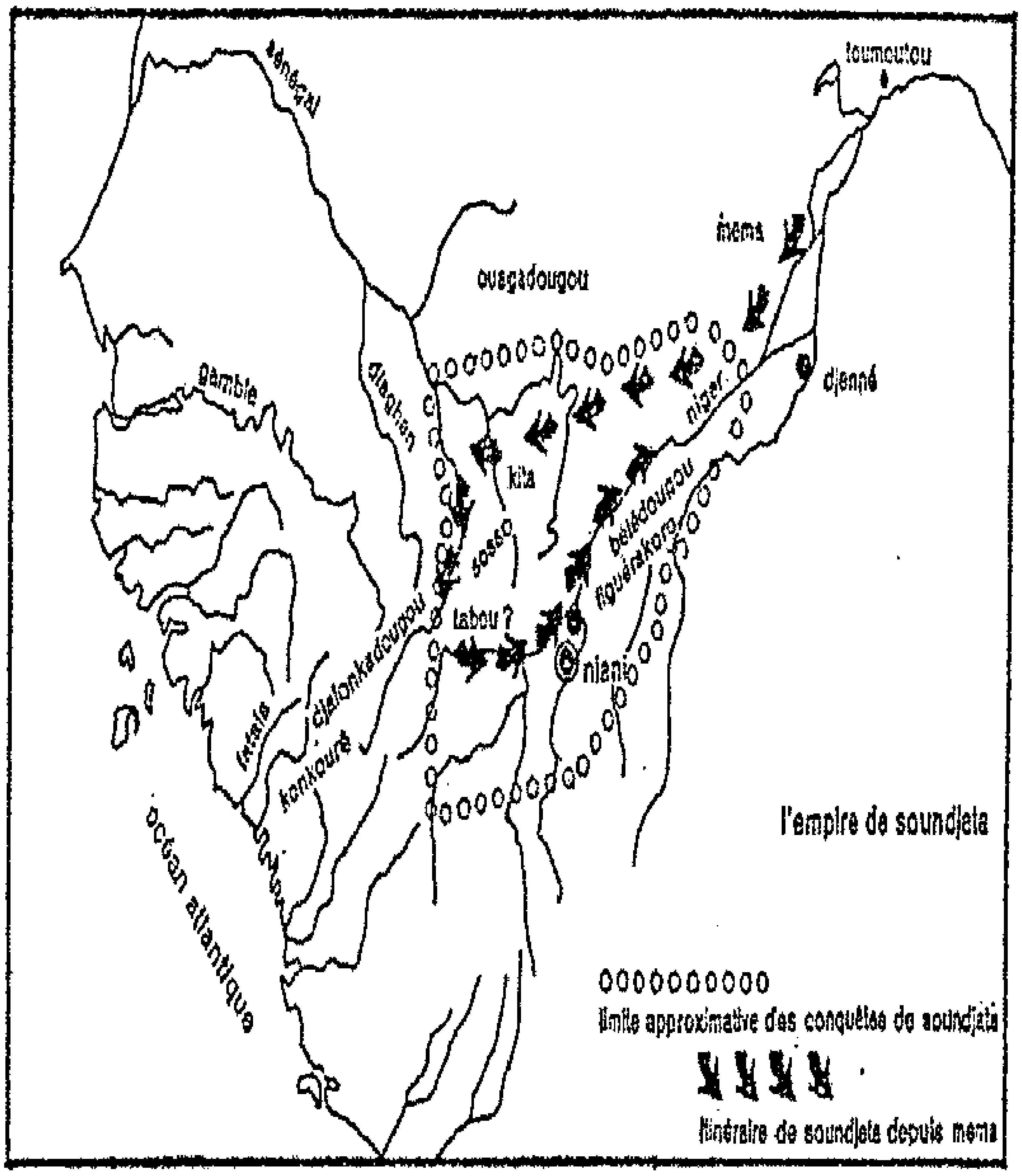

حدود تقريبية لفتوحات سونجاتا

→ → → →

خط سير سونجاتا ابتداء من "ميما"

كوروكان- فوجان(*)
أو
تقسيم العالم

بخروجه من "دو"، بلدة العشرة آلاف بندقية، وبتقدمه على امتداد وادى النهر، وصل سونچاتا إلى كا - با، حيث تلاقت كل الجيوش إذ دخل فاكولى و"طابون واناً" محملين بالغنائم إلى كا - با، وكان سيدى كامانجان قد سبق سونچاتا للإعداد للتجمع الكبير الذى يتعين أن يلتئم فى كا - با، تلك المدينة التى تقع داخل أراضى بلاد سيبى.

كانت كا - با مدينة صغيرة، أسسها كل من نياجالان امبالى فالى وهو قنّاص من سيبى، وسونومبا تراوريه Sounoumba Traoré صياد السمك. وكانت كا - با تنسب دائما إلى ملك سيبى، واليوم نجد الكيتا فى كا - با، إلاّ أن الكيتا لم يأتوا إلى هناك إلاّ بعد سونچاتا (١). وكانت كا - با تقع على الشاطئ الأيسر لنهر جوليبا، وعبر كا - با يمضى الطريق إلى ماندينج القديمة.

Kouroukan- Fougan (*)

وفى شمال كا – با تمتد بقعة مضيئة واسعة (فرجة) تلك هى فوغا، حيث كان يتعين أن يلتئم اجتماع المجلس الكبير، وبعد أن أمر الملك كامانجان بتنظيف كل البقعة، أعدت لذلك منصة كبيرة. وحتى قبل وصول سونچاتا، توافدت الوفود من كل الشعوب المهزومة إلى كا – با. وبنيت الدور على عجل لاستقبال كل هؤلاء الناس. وحينما اجتمعت كل الجيوش، توجب إقامة المعسكرات فى السهل الكبير الواقع بين النهر والمدينة. وفى اليوم المحدد نظمت القوات فى المكان الفسيح المعد لها، وكما حدث فى سيبى فقد كان كل شعب قد اجتمع حول راية مليكه. وكان سونچاتا قد لبس ملابس ملك عظيم مسلم، وقام بلاً فاسيكيه البارع فى الاحتفالات، بترتيب جلوس الحلفاء حول الكرسى الكبير لجاتا، كان كل شيء فى مكانه: فالمشاة الذين شكلوا نصف دائرة كبيرة، تحف بها السهام، ظلوا ساكنين بلا حراك، أما وفود الشعوب فقد استقروا تحت المنصة، وساد صمت كبير. وتوجه بلاً فاسيكيه – الذى كان على يمين سونچاتا والذى كان قد تمنطق قوسه الكبير– إلى الجمهور قائلا: "اليوم يسود السلام كل البلاد، ويجب أن يكون كذلك دائما!".

– رد الجمهور: آمين[٢]، واستطرد البشير:

– أحدثكم أيتها الشعوب المجتمعة: إليكم يا أهل ماندينج، أنقل لكم تحية ما غان سونچاتا. وتحية لكم يا أهل "دو"، وأنتم لكم تحية يا أهل طابون، وتحية إليكم يا أهل واجادو، وتحية لكم يا أهل ميما

وتحية لكم يا أهل قبيلة فاكولى وتحية إلى المحاربين البوبو، وأخيرا تحية إلى أهل سيبى وكا - با، يقول سونجاتا لكل الشعوب المجتمعة: "سلاما" "أرجو أن تلمسوا لى العذر إذا كان حدث بعض السهو، إننى أقف متأثرا أمام هذا الحشد المجتمع.

"أيها الجمع، هانحن، وبعد سنوات من الاختبارات الشاقة، نجتمع حول منقذنا، مع مؤسس السلام والنظام، من المشرق للمغرب، من الشمال للجنوب. لقد أرست أسلحته الظافرة السلام فى كل مكان، أنقل لكم تحيات قاهر سوماؤرو، ماغان سونچاتا، ملك ماندينج.

واحتراما للتقاليد، يتعين علىّ أولا أن أتوجه إلى مضيفنا كامانجان ملك سيبى. يا كامانجان، يا ملك سيبى، سونچاتا يحييك ويعطى لك الكلمة".

ونهض كامانجان، الذى وجد نفسه جالسا بالقرب من سونچاتا، ونزل من فوق المنصة، وامتطى جواده، واستل سيفه صائحا:

- أحييكم جميعا، يا محاربى ماندينج، ودو، وطابون، وميما، وواجادو، وبوبو، وفاكولى، أيها المحاربون. لقد عاد السلام إلى ربوع أوطاننا، أرجو من الله أن يحفظه لنا على الدوام.

- رد المحاربون والجمهور بقولهم آمين، وتابع ملك سيبى.

- على الأرض يعانى البشر لبعض الوقت ولكن ليس إلى الأبد، ونحن كما ترون فى نهاية المحن القاسية، نحن فى سلام: حمدا

لله على ذلك، لكنا ندين بهذا السلام لرجل، فبفضل شجاعته وبطولته وبأسه، عرف كيف يقود قواتنا إلى النصر.

"فمن منا، قد جرؤ، وحده، على مجابهة سوماؤرو"؟

نعم. كنا جميعا جبناء، فكم من المرات دفعنا له الجزية! فالسفيه كان يعتقد أن كل شيء مباح له! فأية أسرة لم تتسربل بالعار بفعل سوماؤرو؟

لقد خطف بناتنا ونساءنا، وكنا أكثر جبنًا من النساء. لقد مضى فى سفهه حتى إنه اختطف امرأة ابن أخيه فاكولى! كنا مدمرين ومهانين أمام أطفالنا. وهكذا وفى وسط هذه المحن تغيرت أقدارنا فجأة، أشرقت شمس جديدة على الشرق! فقد أحسسنا بأننا رجال بعد معركة طابون، وأدركنا أن سوماؤرو كان كائنا بشريا، وليس تجسيدًا للشيطان، لأنه لم يكن ليهزم قط. لقد جاءنا رجل، كان قد سمع أنيننا، وجاء لنجدتنا، مثل والد يرى ابنه وهو يبكى، هذا هو الرجل: ماغان سونچاتا، الرجل ذو الاسمين الذى أنبأتنا به الأرباب.

"يا ابن سوجولون! إليك أتوجه الآن. أنت يا ابن أخت محاربى "دو" البواسل، ومن الآن، فمنك أتسلم مملكتى لأننى أعترف بك كمليكى، وأنا وقبيلتى نضع أنفسنا بين يديك. أحييك يا قائدنا الأعظم، أحييك يا ملك الملوك(٣) أحييك يا مانسا".

كان الهتاف الفرح الذى استقبلت به هذه الكلمات من القوة حتى إنه يُسمع لهذه الضجة الهائلة صدى يتضاعف لاثنتى عشر مرة. أما كامانجان فقد غرس رمحه فى الأرض بيد قوية أمام المنصة، وقال:

"يا سونچاتا، هذا رمحى، إنه لك!

ثم صعد وجلس فى مكانه، بعد ذلك وقف ملك ثم تلاه آخر من الاثنى عشر ملكا، وهم ملوك بلاد الشمس المشرقة فى السافانا، وأعلنوا بدورهم سونچاتا، مانسا "ملكا"، وغُرس اثنى عشر رمحا ملكيا أمام المنصة. كان سونچاتا قد صار إمبراطورا، وأعلنت طبلة نيانى العتيقة للعالم أن بلاد السافانا قُيض لها ملك فريد. وحينما توقفت الطبلة الإمبراطورية عن الرنين، استأنف بلاّ فاسيكيه، أستاذ الاحتفالات العظيم، الكلام، بعد الهتاف الحماسى وترحيب الجمهور. قائلا:

– يا سونچاتا، يا ماغان سونچاتا، يا ملك ماندينج، باسم اثنى عشر من ملوك البلاد المشرقة، أحييك يا مانسا! وهنا هتف الجمهور:

واسًا.. واسًا.. آييً

ووسط مثل هذا الفرح، ألّف بلاّفاسيكيه اللحن العظيم "نياما" الذى أنشده الرواه أيضا:

"نياما نياما نياما

أنت ملجأ الجميع

الجميع.. يطلبون اللجوء إليك..

وأنتَ يا نياما(*)

أنت لا تطلب اللجؤ لأحد..

الله وحده يحفظك! (٤).

بدأ الاحتفال، كان هناك موسيقيون من كل أنحاء البلاد. وبالتناوب أتى كل شعب يقدم نفسه أمام المنصة، تحت نظرات هادئة من سونچاتا، ثم بدأوا فى رقصات المحاربين: اصطف الجنود من جميع البلاد ستة صفوف وسط صلصلة عظيمة للرماح والأقواس المتراصة، وكان قادة الحرب يمتطون خيولهم. أما المحاربون فقد وقفوا فى مواجهة المنصة العملاقة، وبإشارة من بلاّ فاسيكيه استهل الموسيقيون المحتشدون إلى يمين منصة الحفل، وهدرت تام تام الحرب القوية، وكانت الآلات تطلق ألحانًا صاخبة فيما كان صوت الراوى يضبط الإيقاع للجمهور لينشدوا للقوس فقد تقدم رماة الرمح مثل ضباع الليل، حاملين رماحهم فوق رءوسهم، أما رماة السهام من طابون وواجادو فكانوا يسيرون بخطى صامتة كمن يترصد صيدا خلف الأدغال، وفجأة كانوا ينهضون ويرمون الأعداء الوهميين بالسهام. وأمام المنصة الكبيرة قام قادة الحرب، بتنفيذ خطوات راقصة بخيولهم تحت نظر مانسا، وكانت الخيول – التى قهرها

(*) النایاما Niama تعنى محليا حشائش السافانا (المترجمة).

الهمز والنكز. تصهل، وتثب: يجثون ثم ينهضون، وحققوا استدارات صغيرة بل كانوا يضربون الأرض بسنابكهم. وأنشد الحاضرون المتحمسون لحن القوس، كانوا يصفقون بأياديهم كما كانت أجسام المحاربين التى تتصبب عرقا، تلمع تحت أشعة الشمس، بينما ينتزع منهم الإيقاع الصاخب للتام – تام صيحات حادة. وسرعان ما استعد المكان لسلاح الفرسان وهو السلاح المفضل لدى جاتا، وكان فرسان ميما يقذفون برماحهم فى الهواء ثم يمسكون بها وهى طائرة، مطلقين صيحات مدوية. لقد ارتسمت على شفاه جاتا ابتسامة الرضا، كان مسرورا لرؤية خيالته يناورون بكثير من الرشاقة والمهارة. وفيما بعد الظهر غيّر الاحتفال من مظهره: فقد بدأ باستعراض للأسرى والغنائم وكانت الأيدى مغلولة إلى الظهر، مصفوفين فى ثلاثة صفوف، وأُدخل الأسرى السوسو فى الدائرة الكبيرة، وقد حُلقت رءوسهم جميعا، وداروا داخل الدائرة، ومروا من أمام المنصة: وقد غضوا الطرف. وكان الأسرى البؤساء يمشون ببطء متثاقلين تحت سباب الجمهور المنفعل بشدة. وجاء خلفهم الملوك الذين ظلوا أوفياء لسوماؤرو، والذين لم يشاءوا الاستسلام، وهؤلاء أيضا قد حلقت رءوسهم. لكنهم كانوا يمتطون جيادهم؛ حتى يتمكن الجميع من رؤيتهم. وأخيرا جاء سوسو بلاّ، الذى كان قد وضع فى وسط تمائم وتعاويذ أبيه. كانت التمائم محملة على الحمير، وأطلق الجمهور صيحات مدوية من الرعب عند رؤية نزلاء غرفة سوماؤرو

المرعبة، كان يُشار بذعر إلى قدر الثعبان وآلة البالافون السحرية، وبومات ملك سوسو. أما بلاّ ابن سوماؤرو، فقد كان مقيد اليدين على جواد، ولم يجرؤ على رفع عينيه تجاه هذا الجمع الذى كان من قبل يرتعد هلعا من صيحة واحدة من أبيه، وكنا نسمع من الجمهور:

- لكل إنسان دوره، يا بلاّ سوسو -، ارفع رأسك قليلا، أنت أيها الوقح الصغير!

- أكنتَ تشك أنه سيأتى يوم يا بلاّ ستكون فيه عبدا، أيها الشخص الحقير!

- انظر لتعاويذك العاجزة، استدعها إذن، يا ابن الساحر!

وحينما كان سوسو بلاّ أمام المنصة، أتى جاتا بحركة؛ فقد تذكر الاختفاء الغامض لسوماؤرو فى الجبل، صار جاتا مغتما، لاحظ ذلك راويه بلاّ فاسيكيه. وتحدث هكذا:

- إن الابن سيدفع ثمن ما جناه الأب ويمكن لسوماؤرو أن يشكر الله لأنه مات قبل هذا.

لما انتهى العرض، أسكت بلاّ فاسيكيه الحضور: اصطف الجنود، توقفت التام - تام ونهض سونجاتا، وخيم صمت القبور على الساحة، وتقدم المانسا حتى حافة المنصة، وتحدث سونجاتا بوصفه مانسا، كان بلاّ فاسيكيه وحده الذى يستطيع سماع صوته لأن المانسا لا يرفع صوته مثل المنادى العام.

– أحيى كل الشعوب المجتمعة هنا. ثم ذكر جاتا كل الناس، وقال وهو ينزع من الأرض رمح كامانجان ملك سيبى:

– يا ملك سيبى، ها أنا أرد إليك مملكتك، أنت تستحقها بجدارة. إنى أعرفك منذ طفولتنا، إن كلامك صريح واضح مثل قلبك ودون لف أو دوران.

"أرسخ اليوم وإلى الأبد تحالف الكامارا فى سيبى، والكيتا فى الماندينج، وأن يكون هذان الشعبان ومن الآن شقيقين، فأرض الكيتا ستكون من الآن هى أرض الكامارا، وثروة الكامارا ستكون أيضا هى ثروة الكيتا.

"لن يوجد كذب أبدًا وإلى الأبد بين شخص من الكامارا وآخر من الكيتا، وعلى امتداد إمبراطوريتي وفى كل مكان سيكون الكامارا وكأنهم فى بلادهم".

وسلم الرمح إلى كاما نجان، فسجد ملك سيبى أمام جاتا، مثلما يحدث حين يكرمك ملك.

أخذ سونجاتا رمح من "طابون وانًا" وقال:

يا فران كامارا، يا صديقى، أعيد إليك مملكتك، وسيكون الجالونكى والمانينكا حلفاء إلى الأبد، لقد استقبلتنى عندك، وبالمثل سيحدث فى كل بلاد ماندينج، سيُستقبل الجالونكى كأصدقاء. لقد تركت لك الأراضى التى أخضعتها، سيكبر أبناؤك وأبناء أبنائك من الآن فى بلاط نيانى وسيعاملون مثل أمراء ماندينج.

استعاد كل الملوك واحدا بعد واحد ممالكهم من أيدى سونچاتا نفسه، وانحنى كل منهم أمامه مثلما ينحنون أمام مانسا (الملك).

لفظ سونچاتا كل النواهى التى لا تزال تحكم العلاقـات بـين القبائل. فخصص لكل واحد أرضه، وأرسى حقوق كل شعب، ورسَّخ المحبة بين الشعوب: إذ أصبح من الآن– الكونديه من بلاد دو أعمام الكيتا من العائلة الإمبراطورية. لأن هؤلاء لو تذكروا الزواج المثمر بين ناريه ماغان وسوجولون – فإن عليهم الزواج فى "دو"، كمـا أن التونكارا والسيسيه أصبحوا أبناء عمومة فيما يذكر بدعابة الكيتا، كما أُعلن السيسيه والبيريتيه والتوريه من كبار المارابو فى الإمبراطورية، ولم يُقصِّر فى حق أى شعب فى كوروكان فوجـان، وأصبح لكل نصيبه فى القسمة.

أعطى سونچاتا مملكة سوسّو إلى فاكولى كوروما؛ لأن أغلبية قبائلها كانوا مستعبدين أرقاء، فقبيلة فاكولى أى الكوروما Koroma الذين يسميهم الآخرون بالدومبويا أو سيسوكو، تحتكر مهنة الحدادة أى شغل الحديد. كما تلقى فاكولى بالمثل من سونچاتا قطعة من الأراضى الواقعة بين بافين وبافى ويحتفظ كل من الواجادو والميما بملوكهم الذين لا يزالون يحملون لقب مانسا، لكن هاتين المملكتين اعترفتا بسيادة المانسا الأعظم. كما أصبح الكوناتيه فى تورون هم الأخوة الصغار للكيتا، وفى سن النضج يمكن أن يُسمى الكوناتيه بالكيتا.

ولما فرغ ابن سوجولون من توزيع الأراضى والسلطة، استدار ناحية راويه بلاّ فاسيكيه قائلا:

– أمّا أنت يا بلاّ فاسيكيه، يا راوى! سأجعلك الرئيس الأكبر للتشريفات، وسيختار الكيتا منذ الآن رواتهم من قبيلتك، من الكوياتيه. لقد منحت الكوياتيه حق عمل دعابات على كل القبائل خاصة على القبيلة الملكية للكيتا.

هكذا تحدث ابن سوجولون في كوروكان فوجان. ومنذ ذلك الوقت صار كلامه المحترم هو القانون، والقاعدة لكل الشعوب التى كانت حاضرة فى كا – با. لقد قسم جاتا العالم فى كوروكان فوجان، واحتفظ لقبيلته ببلاد بنى كيتا، أما الكامارا سكان هذه المنطقة فقد ظلوا سادة البلاد.

وإذا ذهبت إلى كا – با، اذهب لرؤية فرجة الضوء فى كوروكان فوجان، حيث سترى فيها ملعب جولف ليخلد ذكرى الاجتماع الكبير الذى شهد تقسيم العالم.

الهوامش:

(١) يُعتقد عموما أن مدينة كا - با (كانجابا حاليا) كانت واحدة من أقدم أماكن إقامة الكيتا. وتؤكد الرواية المحلية أن الكيتا لم يقيموا فيها إلاّ بعد سونچاتا، وأن كانجابا أسسها الكامارا من سيبى والتراوريه، وأن الكيتا الذين أقاموا بها قدموا من نيانى. والمقصود هنا شقيقين: الشقيق الأكثر شبابًا بمبا كاندا كان قد ترك أخاه فى مرحلة ما وراح للإقامة فى كا - با وتصاهر مع الكامارا وبالتبعية راحت العديد من الأسر من الكيتا للاستقرار هناك.

(٢) أمينا- آمين (المؤلف).

(٣) ملك الملوك Fama des Fama.

(٤) هذا النشيد هو واحد من الأكثر شهرة مما ألفّه بلاّ فاسيكيه عن سونچاتا؛ لأنه يترجم فكرة أن ابن سوجولون كان هو الجدار الصلب الذى وجدت خلفه كل الشعوب ملاذها.

وفى أناشيد أخرى نسبت أيضا لبلاّ فاسيكيه، كان يقارن على الدوام سونچاتا بالإسكندر (سجلها كيتا فودبا على أسطوانة: وهى أسطوانة "ذائعة الصيت" وذلك تحت اسم ل.د.م ٣٠٠٨٢- سونچاتا).

وأنا شخصيا أميل إلى أن أنسب هذه الأناشيد إلى رواة من عصر كانكوموسى (١٣٠٧-١٣٣٢). حقيقة كان رواة هذا العصر

يلمون بالتاريخ العام بطريقة أفضل كثيرا، على الأقل من خلال الكتابات العربية، ومن القرآن الكريم على وجه الخصوص.

نيانى

بعد هذا التجمع الكبير، بقى سونچاتا فى كا - با لبضعة أيام أيضا، كانت أيام عيد للشعب. وكان سونچاتا يأمر طوال هذه الأيام بأن يذبح له بضع مئات من العجول، تنتزع من الثروة الطائلة لسوماؤرو. وكانت بنات المدينة تأتين إلى الميدان الكبير لكا - با، ليضعن أمام الشرفات الأوانى الكبيرة وبها الأرز واللحم، وكل فرد يمكنه أن يذهب ليأكل حتى الشبع وينصرف إلى حال سبيله. وسرعان ما صارت كا - با مأهولة بالناس القادمين من كل صوب وحدب، تجذبهم سعه العيش، لقد أفرغ عام من الحرب كل مخازن الغلال، وكل فرد كان يأتى ليأخذ نصيبه من مستودعات ملك سوسو، حتى أنه يقال إن بعض الأشخاص كانوا خلال إقامة جاتا فى كا - با أقاموا منازلهم على عين الميدان نفسه كان هذا أجمل فصول العام، كانوا ينامون الليل فى الشرفات، وعند الاستيقاظ، كانوا يجدون أوانى الأرز إلى جوارهم. كان هو العصر الذى تغنوا فيه بلحن الرخاء على شرف سونچاتا:

"لقد جاء

وجاءت السعادة

سونچاتا هنا

والسعادة هنا"

لقد حان الوقت لاسترداد الماندينج مسقط الرأس. جمَّع سونچاتا جيشه فى السهل، فقد قدم كل شعب كتيبة لمصاحبة المانسا إلى نيانى وفى كا - با تفرقت كل الشعوب فى محبة وفرح للسلام الذى استردوه.

لقد كان يتعين على سونچاتا ورجاله أن يعبروا نهر الجوليبا ليخترقوا داخل الماندينج القديمة. وقيل إن كل زوارق العالم أتت للقاء فى ميناء كا - با، حيث كان الفصل فصل الجفاف ولم يكن بالنهر مياه كثيرة، فقد حرصت قبائل الصيادين السومونو - ممن كان "جاتا" قد منحهم احتكار المياه - على شكر ابن سوجولون، فجهزت كل الزوارق ووضعتها جنبًا إلى جنب فى مجرى نهر جوليبا، كى يتمكن جنود سونچاتا من العبور دون أن تبتل أقدامهم.

ولما عبر الجيش إلى الناحية الأخرى من النهر، أمر سونچاتا بأضحيات كبيرة. فقدم أضحية من مائة عجل ومائة جدى، وبها شكر سونچاتا الله بعودته إلى ماندينج.

أعدت قرى الماندينج استقبالا غير مسبوق لماغان سونچاتا. ففى الظروف العادية يقطع الراجل المسافة من كا - با إلى نيانى على مرحلتين، أما ابن سوجولون وجيشه فقضوا فيها ثلاثة أيام؛ فقد كان طريق الماندينج ابتداء من النهر، محاطا بسياج من البشر هرعوا من كل صوب وحدب من جميع أرجاء الماندينج. فكل السكان يريدون أن يروا عن قرب ذلك المنقذ. وشاعت نساء الماندينج أن

تتركن أثرا عميقا، وفعلن كل ما أمكنهن، ففى مدخل كل قرية قمن بفرش الطريق بقطع من ملابسهن الزاهية والمتعددة الألوان، حتى لا تتسخ أقدام فرس جاتا عند دخوله إلى قريتهن، أما عند الخروج من القرى كان الأطفال- الذين يمسكون بفروع الأشجار المورقة- يحيون جاتا مهللين:

"واسًّا.. واسًّا.. آيى

كان سونچاتا يسير فى المقدمة، وكان يرتدى ثياب الملك الصياد، المكونة من قميص بسيط وسروال لصيق بالجسم، متوشحا قوسه، وإلى جانبه بلّافاسيكيه يرتدى أيضا ملابس العيد الموشاة بالذهب. ووضع سوسو بلاّ بين هيئة أركان جاتا وبين الجيش، وسط تمائم أبيه، فلم يعد مقيد اليدين كما كان فى كا-با وكانوا يوسعونه شتما، فلا يجرؤ الأسير على رفع عينيه على الجمهور المعادى. كان هناك بعض الأشخاص الجاهزين دائما لاستدرار الشفقة، كانوا يقولون فيما بينهم:

- كيف أن القدر يتعلق بأبسط الأشياء!

- نعم.. فاليوم الذى يكون المرء فيه سعيدا، هو ذلك اليوم الذى يكون فيه الأكثر شقاء، ففى السعادة لا يتخيل المرء ما هو الشقاء.

كانت القوات تسير وهى تغنى لحن القوس الذى تعلمه الجمهور، كما كانت تتطاير أغان جديدة من فم لفم. كانت الفتيات

يقدمن الماء المنعش وبذور الكولا للجنود، وهكذا اكتملت المسيرة الظافرة عبر الماندينج، أمام "تيانى" بلدة سونچاتا.

كانت مدينة فى حالة خراب، إلى أن بدأ سكانها فى إعادة إعمارها. لقد هدم جزء من التحصينات، ولا تزال الجدران المتكلسة تحمل آثار الحريق. ورأى جاتا من أعلى التل مدينة نيانى التى كانت تشبه مدينة فى حالة موات، كما رأى أيضا سهل سونكارانى، وكذلك ساحة شجرة الباوباب اليافعة. أما الناجون من الكارثة فقد مكثوا مصطفين على طريق الماندينج. وكان الأطفال يلوحون بأغصان الأشجار، وكانت بعض الفتيات يغنين، أما الكبار فقد كانوا صامتين.

– قال بلاّ فاسيكيه: كن سعيدا! فأنت الذى ستحظى بإعادة بناء "تيانى" مدينة آبائك، ولن يقوم أحد بإعادة بناء سوسو من دمارها، إن الناس سوف يفقدون إمكانية تذكر موقع مدينة سوماؤرو.

***

ومع سونچاتا حل السلام والسعادة فى نيانى، وبالحب أعاد ابن سوجولون بناء مدينته مسقط رأسه. وقد أصلح على الطراز القديم قصر والده المتداعى، حيث شب. ووفد من كل أنحاء قرى الماندينج أناس للاستقرار فى نيانى. وكان يتعين هدم الجدران لتكبير المدينة، وبنيت فيها أحياء جديدة لكل جماعة من الجيش الضخم.

كان سونچاتا قد أبقى أخاه ماندينج بورى فى باجادو جليبا على النهر. كان ماندينج بورى هو الـ كانكورو– سيغى أى نائب

الملك (المانسا). وكان يشرف على كل البلاد المهزومة. ولما انتهت أعمال إعادة بناء العاصمة، ذهب سونچاتا نحو الجنوب للقتال وليثير الخوف لدى شعوب الغابة.

واستقبل وفدا من بلاد سانجاران التى استقرت بها بعض قبائل الكونديه، وتحالف معهم رغم أنهم لم يكونوا ممثلين فى اجتماع كوروكان فوجان، ووضعوا على قدم المساواة مع الكونديه من بلاد دو.

وخلال عام، عقد سونچاتا اجتماعا جديدا فى نيانى. كان اجتماعا للأعيان وملوك الإمبراطورية. وذهب الملوك والأعيان من كل القبائل إلى "نيانى"، وتحدث الملوك عن إدارتهم للممالك وتحدث الأعيان عن الملوك. أما فاكولى، ابن أخت سوماؤرو الذى قدم نفسه كمستقل تماما عنه، اضطر إلى الهرب ليتجنب غضب المانسا. فقد صودرت أراضيه، وكانت ضرائب سوسو تصب مباشرة فى مخازن نيانى، وهكذا كان سونچاتا يجمع حوله كل عام الملوك والأعيان. وساد العدل فى كل مكان، لأن الملوك كانوا يخشون أن يشى بهم أحد فى نيانى.

لم يستثن أحد من عدل سونچاتا، لقد اتبع قول الله، كان يحمى الضعيف فى مواجهة القوى، وكان الناس يمشون لعدة أيام ليأتوا إليه يطلبون عدله، وتحت شمسه يُكافأ العادل ويُعاقَب الشرير.

وفى هذا السلام المسترد، عرفت القرى الرخاء، فمع سونچاتا كانت السعادة قد حلت بكل العالم. فقد أحاطت القرى حقول فسيحة من الذرة البيضاء والأرز والقطن والنيلة، فمن كان يعمل كان لديه دائما ما يمكنه من العيش.

وكل عام كانت القوافل الكبيرة تحمل الموديه Moudé [1] إلى "نيانى"، وكان يمكن الذهاب من قرية لأخرى دون خوف من قطاع الطرق، فقد كانت تقطع اليد اليمنى للسارق، وإذا عاد مرة أخرى للسرقة يوضع فى الحبس.

لقد أنشئت مدن جديدة وقرى جديدة فى الماندينج وغيرها، وكثر الدجولا أو التجار. وعرف العالم معنى السعادة فى ظل حكم جاتا.

هناك ملوك أقوياء لقوتهم العسكرية، ويرتعد الجميع أمامهم، لكن بعد موتهم لا يتناولهم الحديث إلاّ بالسوء، وغيرهم لم يفعلوا خيرا أو شرا وبعد مماتهم يكونون طىّ النسيان. وآخرون غيرهم مُهابون لأن لديهم القوة، ويعرفون كيف يستعملونها وهم محبوبون لأنهم يحبون العدل؛ ويُنسب سونچاتا إلى هذا الفريق إنه مهاب ومحبوب أيضا. كان أبو الماندينج قد وهب العالم السلام، وبعده لم يعرف العالم فاتحا عظيما مثله لأنه كان الفاتح السابع والأخير.

ومن قرية والده الصغيرة، أقام عاصمة إمبراطورية، وكانت "نيانى" قد أصبحت "سُرّة" البلاد، وفى البلاد النائية كانوا يتحدثون عن

"نياني"، وكان الأجانب يقولون: "إنها لكذبة كبرى أن يقول أحد إنه آتٍ من الماندينج"، لأن الماندينج كانت بلدا بعيدا لكثير من الشعوب.

كان الرواة؛ المتحدثون الجذابون، يقولون عندما يمتدحون "نياني" والماندينج:

– إذا أردت ملحا، اذهب إلى نياني"! لأنها مخيم قوافل بلاد الساحل.

"إذا أردت ذهبا، اذهب إلى "نياني"! لأن كل من بوريه، وبامبوجو وواجادو يعملون من أجل "نياني".

"إذا أردت أقمشة جميلة، اذهب إلى نياني"! لأن الطريق إلى مكة يمر بنياني.

إذا أردت سمكا أذهب إلى "نياني"! فهناك يبيع صيادو ماووتي وجني مغانمهم.

"إذا أردت لحما، اذهب إلى "نياني"! بلد كبار القناصين وهي أيضا بلد العجل والخروف.

"إذا أردت أن ترى جيشا، اذهب إلى "نياني"! فهناك توجد القوات المتجمعة للماندينج.

"إذا أردت أن ترى ملكا عظيما، اذهب إلى "نياني"! فهناك يقيم ابن سوجولون الرجل ذو الاسمين".

كان هذا ما يتغنى به أساتذة الكلام.

ومن بين المدن الكبرى للإمبراطورية، يتعين أن أذكر كيتا، أى مدينة المياه المقدسة، والتى أصبحت العاصمة الثانية للكيتا.

وسأذكر طابون التى اختفت، تلك المدينة ذات الأبواب الحديدية، ولن أنسى دو Do، ولا كرى Kri، أى وطن سوجولون، تلك المرأة العجل.

سأذكر أيضا كوكوبا، وباتامبا، وكامباذيجا ومدن الجنود المشاة، سأذكر مدينة دياغان، وميما مدينة كرم الضيافة، وواجادو التى كان يحكمها حفيد ذو القرنين. وكم من الخراب المتراكم، وكم من المدن التى اختفت!

وكم من وحشة مسكونة بروح ملوك عظام!.

فأشجار القابوق والباوباب المتفردة التى تراها فى الماندينج هى الآثار الوحيدة للمدن التى اختفت.

الهوامش:

(١) موديه Moudé تحريف فى المالينكيه للكلمة العربية "المدّ Mudd " وتعنى مكيالاً للحبوب، وهو قياس شرعى حدده النبى. ولما كانت الضريبة تدفع عينيا، فإنها تقدر "بالمد" Mudd، وأخيرا فاللفظ حدد الضريبة بلا زيادة. وكان مدٌّ Mudd الأرز يزن من ١٠ إلى ١٥ كيلو جرامًا (محتوى سلة أرز).

الماندينج الخالدة

كم من الخرائب تراكمت، وكم من عظماء قُهروا، لكن الوقائع التى تحدثتُ عنها مضت منذ وقت طويل، كان مسرح كل ذلك هى بلاد الماندينج، لقد توالى الملوك تلو الملوك وظلت الماندينج هى نفسها.

فبلاد الماندينج تحفظ أسرارها غيرة عليها، إنها أشياء سينكرها من يدنس الحرمات دائما، لأن الرواة، الذين هم موضع الأسرار، لا يفشونها مطلقا: ويرقد ماغان سونچاتا، آخر غزاة الأرض، ليس بعيدًا عن "تيانى" نيانى" أى فى بالاندوجو، أى مدينة السد [١].

ومن بعده، حكم العديد من الملوك والمانسا فى الماندينج، كما قامت مدن أخرى واختفت. إن الحاج مانسا موسى، ذو الذكرى الشهيرة وحبيب الله، بنى فى مكة منازل للحجاج الماندينج، إلاًّ أن المدن التى أسسها اختفت جميعا مثل: كارانينا، جيجيفى، وبورون كونا ولم يبق أثر لهذه المدن.

كما أن ملوكًا آخرين وصلوا بـــ الماندينج أبعد كثيرا من حدود جاتا، وهما مانسا سامانكا وفاديما موسى Fadima Moussa.، ولا أحد منهم ماثل من جاتا[٢].

كان ماغان سونجاتا فريدا، لم يضاهه أحد فى زمانه، وبعده لم يكن لأى شخــص أن يطمح فى التفوق عليه. لقد ترك دائما بصمته على الماندينج، أما تمائمه[٣] "dio" فهى التى تقود الرجال فى سلوكهم. فالماندينج خالدة.

لكى تقنع بما قلت، اذهب إلى الماندينج: ستجد فى تيجان Tigan، الغابة العزيزة على سونجاتا، لأنك سترى فيها واقى الصدر الخاص بفاكولى كوروما، اذهب إلى كيريكوروني بالقرب من نياسولا سترى فيها شجرة تخلد مرور سونجاتا فى هذه الأماكن، اذهب إلى بانكومانا على نهر جوليبا، سترى فيها الآلة الموسيقية لسوماؤرو، هذه الآلة تسمى بالا – نينترى – اذهب إلى كا – با سترى هناك فرجة كوروكان فوجان حيث عقد التجمع الكبير الذى سن دستور إمبراطورية سونجاتا، اذهب إلى كيرينا بالقرب من كا – با، سترى فيها الطائر الذى أعلن الكلمة الفاصلة لسوماؤرو، فى كيلا بالقرب من كا - با ستجد طبول جولوفين مانسا الملكية، إنه ملك السنغال الذى هزمه جاتا. لكن أيها التعس لا تحاول أبدًا أن تكشف السر الذى يخفيه الماندينج عنك، لا تذهب أبدًا لإقلاق الأرواح فى راحتها الأبدية، لا تذهب أبدًا إلى المدن الموات لتنقب عن الماضى، لأن الأرواح لا تصفح أبدًا! لا تبحث قط عن معرفة ما لا يجب معرفته.

***

يا رجال اليوم.. كم أنتم صغار إلى جانب أجدادكم، صغار فى العقل، لأنكم بالكاد وقفتم على معنى كلامى. إن سونچاتا يرقد بالقرب من "نيانى نيانى" لكن روحه عاشت خالدة.. وسيظل الكيتا إلى اليوم ينحنون أمام الحجر الذى يرقد تحته أبو الماندينج.

***

أما أنا فلكى اكتسب معرفتى هذه فقد قمتُ بجولة فى الماندينج، حيث عاينتُ فى كيتا الجبل الذى ترقد فيه بحيرة المياه المقدسة، وتعلمتُ فى سيجو تاريخ ملوك دو وكرى، وفى فاداما فى الهامانا استمعتُ للرواة الكونديه وهم يحكون كيف أن الكيت–ا والكونديه والكارمارا غزوا وورولا (٤). وفى كيلا، قرية الأساتذة العظام، تعلمت أصول الماندينج، وهناك اتقنتُ فن الكلام. وفى كل مكان استطعتُ مشاهدة وفهم كل ما علمه إياى أساتذتى. لقد أديت اليمين بين أيديهم بأن أعلَم ما يجب أن يُعلَّم، وأن أصمت أمام كل ما هو جدير بالصمت.

الهوامش:

(١) هنا لم يشأ جيلي مامادو كوياتيه أن يذهب بعيدا، حيث هناك العديد من الروايات التى تشيع حول نهاية سونچاتا.

ويقدم دولا فوس روايتين: الأولى تقول: إن سونچاتا قتل بسهم أثناء احتفال عام فى نيانى، والثانية والشائعة بدرجة عظيمة فى الماندينج، والتى يحتمل تحققها بسبب وجود مقبرة جاتا بالقرب من السانكارانى، وحسب هذه الرواية الثانية فسونچاتا كان قد غرق فى السانكارانى، ودفن بالقرب من المكان نفسه الذى كان قد غرق فيه.

لقد سمعت هذه القصة الأخيرة من فم العديد من أصحاب المأثور. ففى أعقاب أية ظروف من الحل والترحال لقى سونچاتا الموت فى المياه؟ هذا هو السؤال الذى يتوجب علينا أن نجد له جوابا.

(٢) ذكر جيلي ممادو كوياتيه هنا عدة ملوك للماندينج، ولم يكن الحاج منسا موسى سوى كانكو موسى الشهير (١٣٠٧-١٣٣٢) الذى صار مشهورا إلى الأبد، بسبب الحج الشهير عام ١٣٢٥ (انظر ملك الحج). وينسب تراث ديوما إلى كانكو موسى تأسيس مدن عديدة اختفت اليوم.

(٣) ديو Dio: الديو هو شيء مُحَرّم، أمر به جدّ أول، واللفظ يشير بالمثل إلى التمائم.

(٤) الرواة التقليديون يسافرون كثيرا قبل أن يصبحوا بيلين- تيجى Belen- Tigui أى "أساتذة الكلام". بالمالينكية. ويتكون هذا التعبير من "بيلين Belen" وهو اسم جذع من الخشب زرع فى وسط الساحة العامة، الذى يرتكز عليه الخطيب ويتحدث للجمهور، أما تيجى Tigui فيراد بها الأستاذ. هناك العديد من المراكز الشهيرة من أجل دراسة التاريخ مثل: فاداما فى الهامانا (كوروسًا) وهى على النياندان فى مواجهة بارو التى تقع على الشاطئ الأيمن، وبالأخص كيلا، أى مدينة "أصحاب المأثور"؛ دياباتيه القريبة من كانجابا (كا - با) (السودان).

وممادو كوياتيه هو من قرية جيليبا كورو فى الديوما (جنوب سيغيرى)، وهى مقاطعة يسكنها الكيتا Keita الذين قدموا من كيتا Kita فى نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر.

(انظر أطروحة دبلوم الدراسات العليا الخاصة بى).

المؤلف فى سطور:

جبريل تمسير نيان

- أستاذ التاريخ بجامعة كوناكرى.
- كتب فى تاريخ الحضارات والإمبراطوريات الأفريقية، وذلك من خلال إشرافه على بعض أجزاء موسوعة اليونسكو عن تاريخ أفريقيا العام، وحرر الجزء الرابع منها.
- له عدة مؤلفات معروفة: تاريخ أفريقيا الغربية، السودان الغربى – وعصر الإمبراطوريات الكبرى– كتب أيضا نصوصا مسرحية وأصدر: حكايات الأمس واليوم.

المترجمة فى سطور:

توحيدة على توفيق

- خريجة قسم الفلسفة جامعة القاهرة ١٩٦٧.
- دبلوم الإعلام والعلاقات العامة – كلية الإعلام – جامعة القاهرة.
- باحثة بالهيئة العامة للاستعلامات، ثم المنظمة العربية لحقوق الإنسان.
- سكرتيرة تحرير مجلة "أفريقيا" (دار المستقبل العربى) – ١٩٨٦–١٩٨٧.

المراجع فى سطور:

أمينة رشيد

- أستاذ الأدب الفرنسى والمقارن بكلية الآداب جامعة القاهرة.
- لها العديد من الدراسات النقدية بالعربية والفرنسية، أبرزها كتاب تشظى الزمن فى الرواية الحديثة.
- ترجمت إلى الفرنسية رواية الصبار لسحر خليفة (بالاشتراك مع جمال الدين بن شيخ) ووردية ليل لإبراهيم أصلان (بالاشتراك مع أرليت تادييه) .
- ترجمت من الفرنسية إلى العربية رواية المكان لآنى أرنو (بالاشتراك مع سيد البحراوى) والأشياء لجورج بيريك (بالاشتراك مع سيد البحراوى)، إلى جانب مجموعة من المقالات جمعها كلود فاديه تحت عنوان الأيدولوجيا (بالاشتراك مع سيد البحراوى).

المقدم فى سطور:

حلمى شعراوى

- خريج قسم الاجتماع – جامعة القاهرة ١٩٥٨.
- باحث متخصص فى الاجتماع السياسى والثقافة الأفريقية.
- مدير مركز البحوث العربية والأفريقية ١٩٨٧.
- خبير سابق للعلاقات الثقافية الأفريقية بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٦/٨٢.
- أستاذ الفكر الأفريقى بجامعة جوبا– ٨١/٨٠.
- رئيس أسبق للجمعية الأفريقية للعلوم السياسية.
- اشتغل وكتب عدة كتب ودراسات عن التراث الأفريقى العربى، وجدل الثقافات الأفريقية والعربية.

ومن أهم أعماله:-

* العرب والأفارقة وجهًا لوجه.
* أفارقة وعرب فى مهب الريح.
* اللغات الأفريقية بالحرف.

التصحيح اللغوى: **صفــاء فتحــــى**

الإشراف الفنـــى: **حسن كامـــــل**

أصغى جبريل تمسير نيان هنا لأفريقيا التقليدية فالأقوال التى قدمها لنا هى أقوال الرواة، هنا نتعلم تاريخ جد الماندينج العظيم ذلك الذى تفوق بمآثره على الإسكندر.إنه تاريخ ابن العجل، وابن الأسد: "سونچاتا" أى الرجل ذو الأسماء المتعددة والذى لم تقدر الرقى السحرية المؤذية على المساس به.

جبريل تمسير نيان، هو عالم تاريخ عظيم فى أفريقيا السوداء، كرس نفسه لدراسة الحضارة السوداء، وللأبحاث فى ميدان العلوم الاجتماعية، بالإضافة إلى المؤلفات المختلفة، والمسرحيات والمقالات التى صدرت عن بريزنس أفريكين:

- تاريخ أفريقيا الغربية.
- السودان الغربى فى زمن الإمبراطوريات الكبرى.
- حكايات الأمس واليوم.

Bibliotheca Alexandrina
0918877

تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح